مقرر

أدب الأطفـــال

الفرقة .... الأولى... طفولة

أستاذ المقرر

أ.م. د/ بخيته حامد إبراهيم

أستاذ الأدب الحديث المساعد – كلية الآداب بقنا

العام الجامعي

2023م / 2024

بيــانــات أساسية

الكلية: التربية – طفولة

الفرقة: الأولى

عدد الصفحات: 200

محاضـرات

في أدب الأطفـــــال

أحمد سويلم

وإنمــا أولادنا بيننا

أكبادنا تمشى علـى الأرض

لو مرَّت الريح على بعضهم

لامتنعت عينـى عن الغمـضِ

(حطَّان بن المُعَلَّى)

ملاحظة أولى

في دراسته (فى أدب الأطفال) يقرر الدكتور على الحديدى أن عالم الأدب المكتوب للأطفال لم يوجد إلا فى العشرينات من هذا القرن..

ومنذ سنوات بالتحديد فى الخامس عشر من سبتمبر عام 1978. طالعتنا صفحة الجمعة الأدبية بجريدة الأهرام بموضوع حول أدب الأطفال وحواديت الطفولة[1] ..

وقد اتكأ على مقولة الدكتور الحديدى وأخذ يفرِّع منها مقولات أخرى مثل:

* شوقى أول شاعر فى العربية يكتب للأطفال.

* رفاعة الطهطاوى أول من أدخل أدب الأطفال إلى المدارس.

ثم يناقض الكاتب نفسه مرة أخرى في نفس الموضـــــوع فيقول:إن محمـد الهراوى يعتبر أول من تخصص فى الكتـابة للأطفال .. وأيضًا: ويعتبر كامل كيلانـى الأب الشرعى لأدب الأطفال..إلى غير ذلك من الآراء التى جلعتنى أتـــوقف أمامهـا مدفوعًا إلى البحث وراء الحقيقة فى هذا المجال..

وأعترف أننى لا أختلـــف على أن "أحمد شوقى" شاعـر فذّ أضـــاف إلى التـــراث

[1] - كاتب هذا الموضوع هو الأستاذ فتحي سلامة .. وانظر أيضا (في أدب الأطفال) د. على الحديدى – مكتبة الأنجلو، ص.

المعاصر ما عجز عنه الكثيرون.. لكنن الحب وحده لا يكفى لتقدير عبقرية إنسان أو فنان.. وما دام يسوقنا الولاء والحب وحدهما فى طربق الحقيقة الشائك.. فلـن تكتمل ملامـــــح الصورة كما نود.. وإنما سوف تكون حقيقة يشوبها النقصان.. نتحمل وحدنا وزر طرحها على الذهن العام..

وما يشغلنى فى هذا المجال هو جانب الشعر.. لذا رأيته موضوعًا يستحـق البحث والتدقيق..ويستحق منى المحاولة المخلصة للوصول إلى الحقيقة التى تعطى الناس أحجامهم وأقدارهم دون تزيّد أو نقصان..

وكان لابد أن أتريث أمام جذور الأدب الذى كُتب للأطفال منذ حاول الإنسان القديم أن يأخذ أبناءه بالتربية والتهذيـب والتثقيـف.. وماذا عن الشعر في هذا الأدب.. وكيف كان يُنظر إليه حينما يوجهه المعلم أو الأب أو الحكيم إلى الأبناء..

ووجدت شعر الأطفال فى الحضارات القديمـة . خاصة الحضارة المصرية . له أهمية خاصة تكاد تجىء فى مقدمة الوسائط الأدبية فى مجال الأدب.

ثم تناولت شعر الأطفـال عند العرب.. ونقَّبت عن بعض الصفحـات الغائبـة من أشعار الأطفال فى الترث: وهى قليلة نادرة.. ثم ناقشـت قضيتى قلـة النمـاذج فى التراث العربي، وما إذا كان يوجد شعر موجه حقيقي للأطفال.. وحاولت أن أفسـر ذلك على ضوء كثير من الحقائق والاراء التى طرحتها الساحة العربية.. وصاحبت المعاصرين من الشعراء الذين أخلصوا فى الكتابة للأطفال..

وحاولت استخلاص أسباب هذا الاهتمام ودوافعه.. ابتداء بالشاعر محمـد عثمان

جلال ومرورًا بأحمد شوقى والهـراوى والكيلانى وغيرهم.. وسقـت بعض التجارب المتميزة في الوطن العربي – ومنه في مصر – فى إطار الحديث عن محاولات الكتابة بالشعر الحديث – أو الحر.

وفى خاتمة الدراسة وجدتنى أدعو إلى ما يسمى (بديوان الطفل العربي) الذى ينبغى أن يحتشد له..الشعـراء على امتداد الوطن الكبيـر ليكون كآئنا حقيقيًّا يسعد به

الأطفال– أجيال الغد.

وكنت قد اشتركت بدراسة موجـــزة عنوانها – ماذا كتب الشعـراء للأطفـال – فى أكثر من حلقة دراسية بمناسبة عام الطفل الدولي.. وكانت الدراســة الوحيدة التى تناولت شعر الأطفال بين شتى الدراسات وأهم هذه الحلقات:

* الحلقة الدراسية التدريبية فى مجال الطفولة وعام الطفل الدولي التى عقدت في

معهد التدريب الإذاعى بالقاهرة من أكتوبر 1978 حتى يناير 1979وقمـت

بتدريسها لطلبة الحلقة من مقدمى برامج الطفل ومعديها ومخرجيها بالإذاعــة والتليفزيون..

* الحلقة الإقليمية حول مشكلات إنتاج وتوزيع الكتاب فى العالم العربى وخاصة كتاب الطفل، وقد عقدت فى مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة من 29 يناير حتى 3 فبراير 1979 واشتركت فيها عشر دول عربية.

وأخيرًا..

فيسعدنى أن أتقدم إلى القــارىء العزيز والمهتمين بالطفولة بهذه المحاولة.. متمنيًا أن تضيف جديدًا إلى المكتبـــــة العربية فى هذا الموضوع.. وتحضّ الكثيرين- فيما بعد -على تناول أبعاد أخرى لهذه القضية.

والله ولى التوفيق..

أحمد سويلم

مدخل عام إلى أدب الأطفال

الأدب:

الأدب قديم قدم الإنســـان.. ونعنى به فن الإبانـــــة عن النفس أو هو ذلك التعبير المتجدد عن مشاعر الإنسان فى مواجهة العالم من حوله.

وتتردد كلمة (أدب) في حياتنا اليومية لتشمل تلك الوسائل الفنية المختلفة التى تقوم على التعبير بالكلمـــــة عن الفكر والوجدان.. ومن ثم يختلـف الأدب عن العلم– مثلاً فى أن العلم قد لا يعبر عن الوجدان بقدر ما يهتم بالحقائق الماثلـــة والواقع النظري أو العلمي.

وحول كلمة أدب يختلف المؤرخون.

فهذا ابن منظور يقول فى لسانه:
الأدب..الذى يتـــأدب به الأديب من النـــاس.. سُمى أدبًا لأنه يـــؤدب الناس إلى المحامد وينهاهـــم عن المقابح.. والأدب: أدب النفس والدرس.. وأدَّبـــه: علمـــه "أدبنى ربى فأحسن تأديبى" الحديث..

ويعرفه الجُرجانى الحنفي فى مصنَّفه (التعريفات) هكذا:

الأدب: عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ.

وآداب الحديث:صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط فى البحث وإلزامًا للخصم وإفحامه.

أدب القاضى: هو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط العدل ورفع الظلم وترك الميل.

أما ابن خلدون فيقول عن علم الأدب:

. إنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته.. وهى الإجادة فى فَنَّىْ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم...

ثم يقول: إن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهى: أدب الكاتب لابن قيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.

وقد استخدمت الكلمة على مدى تاريخ الأدب استخدامات كثيرة منها أنها تعنى: الداعى إلى الطعام، ومنها المأدبة، بمعنى الطعام الذى يدعى إليه الناس، لكن الحديث النبوى كما رأينا يضيف إليها معنى تهذيبيًّا صريحًا "أَدَّبَنى رَبِّى.."

على حين يستخدمها مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغَنوى بنفس المعنى إذ يقول:

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا

أعطيهمو ما أرادوا حسن ذا أدبا

وهذا المعنى الخلقي لم ينقطع فى أي عصر عربي.. فقد قال عمر ابن الخطاب: احفظْ محاسن الشعر يحسنْ أدبك..

وسمى الماوردى كتابًا له: أدب الدنيا والدين..

ولو أردنا أن نسترسل في مثل تلك التفسيرات لدى العرب لملأنا صفحات وصفحات إذ استطاع العرب أن يحشدوا تحت كلمة (أدب) كثيرًا من معانى الحياة.. تتصل بالسلوكيات وبالأخلاق والفن والإبداع جميعًا.

بل عنى المستشرقون كذلك في تفسير كلمة أدب.. وكانوا يقتربون أحيانًا من التفسير ات العربية.. ويبتعدون فى القليل النادر.. رغبة فى توسيع مدلولاتها ومنهم (نلينو) الذى ذهب إلى أنها تعنى؛ سيرة الآباء والسُّنة والعادة.

ويرى الأب أنستاس مارى الكرملى أن الأدب صنعة الأديب..وهى واردة فى اللغة اليونانية بهذا اللفظ والمعنى.

ومن ثم فإن الأدب قد يشمل كل ألوان المعرفة.. وقد يضيق ليقف عند الكلام الجيد من الشعر والنثر.. وقد لوحظ مثل ذلك فى الفكر الغربي مما اختلف حوله الكتّاب .. وفى هذا الصدد يقول:أمرسن الأمريكي: الأدب سجل لخير الأفكار.[2]

وهو تعريف للأدب بمعناه العام.. على حين يقول: سانت بيف الناقد الفرنسي: الأدب هو الأسلوب الجميل الذى يصور الحقائق الإنسانيـة.. وهذا هو الأدب في إطار أضيق قليلا.

أما أداة الأدب فلا خلاف على أنها اللغة.. والتى تحمل الأفكار والمعانى والصور إلى القارىء وبهذه النظرة لا يختلف الأدب الذى يوجه إلى الكبـار عن ذلك الأدب الذى يوجه إلى الصغار إلا فى الموضوع الذى يتصدى له كل منهما بحيث يلائـم ذهن القارىء واستعداده للاستيعاب وكذلك في الأسلوب الذى يحمل هذه الأفكـار إلى الملتقى..

- لا شك أن جدلا كبيرا حول مفاهيم الأدب يتناثر في كثير من كتب النقد .. لكننا نحاول هنا عرض آراء تتعلق بغرض هذه الدراسة قدر المستطاع.

وحينما ننظر إلى حركة التاريخ العربى ونظرتها إلى الأدب.. نجد كثيرًا من التطور لمضمونها على مر العصور حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن..

ففى العصر الأموى مثلا.. دلت الكلمة على الشعـر والنثر وما يتصـل بهما من الشرح والأخبار والأنساب.. ويدل على هذا قول معاويــة بن أبى سفيان "اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم".

كما أطلق على الملمين بهذه الثقافة . أدباء . ويدل على هذا قـول شاعر فى مـدح الخوارج:

أدباء إما جئتهم خطباءُ

ضمناء كل كتيبة جرار

أما العصر العباسي .. فقد جعل الأدب يشمل إلى جـانب الشعـر والنثر .. النحـو والصرف واللغة والنقد.. وأُلفت كتب كثيرة بهذا المعنى.

ثم تشمل الكلمة علومًا أخرى وثقافات متعددة فيما بعد.. يجمعها الشاعر القاسـم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع فى قوله:

إن شئت تعلــم فى الآداب منزلتى وأننى قد عدانى العـز والنعـم

فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى والعود والنرد والشطرنج والقلُم[3]

فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث نجده وقد تميز باتساع المعارف والثقافــات.. وكان..لابد أن تضيق كلمة الأدب وتتخصص لتـدل على علـــوم اللغة العربيــة

- الأوهاق: جمع وهق، وهو الحبل.

وحدها.. بل نجدها قد اقتصرت على الجيد من الشعر والنثر. كما كانـت دلالتهـا فى العصر الأموى.

ولا أعتقد أننا نحيد كثيرًا عن الحق حينما نعرّف الأدب اليوم . بأنه التعبير المبـدع الجميل عن الفكر والوجدان: شعرًا كان أم نثرًا..

وقد تعددت اليوم موضوعـات الأدب وفروعه بل اتصلت بها عمليات التذوق والنقد والرأي.. لكن أبرز فرعيــن فى العصر الحديث هما: الشعر والقصـة.. ويبـدو أن الألوان الأخرى قد تفرعــت عنهما واتصـــلت بهما بجذور قوية.. مثل المسرحيـة والمقامة والأنشودة.. والمقالة والخاطرة وغيرها من ألوان الإبداع..

أدبان أم أدب واحد:

حينما نمعن النظر اليوم إلى ساحة الأدب نجدها وقد انقسمت إلى جانبين كبيريـن: أدب للكبار.. وأدب للصغار[4].

صحيح أن الجانب الذى يشغله أدب الكبار يشمل مساحة أكبـر بكثير من تلك التى يشغلها أدب الصغار مما يجعلنا أمام تساؤل يتعلق بتعليل هذه الحـالة من الإبداع، خاصة أن الطفل يشكل اللبنة الأولى في أي بنـاء إنسانى.. وأن الثقافة ـ كمـا هو معروف ـ تبدأ بالطفل.

أما الأدب الذي يوجـه إلى الكبار.. فهو ببساطـــة ذلك التـراث الأكبـر من إبداع البشرية منذ أقدم حقب التاريخ.

أما أدب الصغـــار فإن جـدلاً كبيرًا يثور حول نشأته وطبيعته..وما إذا كان يستحق أن تكون له مساحته الخاصة فى الأدب الإنساني.. أم لا.

وقد توقف الباحثون أمام تـراث الحِكَم والمواعظ التعليمية لدى الحضارات القديمة.. وما إذا كان من الممكن أن تضاف بارتياح إلى باب الأدب أم لا.

ويذكر التاريخ تلك الكتب التى كتبت للصغار باللاتينية فى القرن السابـع .. وكان هدفها تعليم الدين وأوليات الكتابة.

ومن قبل ذلك بمئات السنين.. وجدت رسائل الآباء إلى الأبناء.. كما وجدت تعاليم ونصائح الحكماء للأبناء.. والوصايا الدينية والتهذيبية..وتقاسم التعبير عنها الشعر والنثر ولعبت دورًا خطيرًا في تكوين شخصية الصغير.

- هذا يعنى بالطبع أن الأدب المعاصر – خاصة في القرن العشرين- قد فصل تماما بين اللونين .. وأصبح لكل منهما كتابه ومفكروه.!

ومن أشهر هذه المواعظ والوصايــا: مواعظ لقمان . وإيسوب . وبتاح حوتب . وايبوور وغيرها مما يطلق عليه . الأدب التهذيبي أو التعليمي.

وإلى جانب ذلك اللون من الكتابة.. وجدنا القصة الخرافيــة والحكايات الخياليــة المتنوعة كما وجدنا الأناشيد والأغانى وبعضها صاحب الألعــاب التى يمارسها الأطفال على إيقاعات الموسيقى البسيطة.

وبالرغم من أن كثيرًا من نظريات الأدب الحديثة تحاول أن تُخرج من ميدان الأدب تلك الكتابات التهذيبية أوالوعظية..غير أنه من الظلم أن تقوَّم تلك الكتابات القديمة بمقاييس العصر الحاضر التى تميل إلى التخصص الدقيق.

إن ابن الأنبارى مثلاً فى (نزهة الألبا فى طبقات الأدباء) يترجم للنحــاة واللغويين والشعـراء والكتـــاب.. وبهذا يُدخـــل العلوم اللغويــة تحت مادة (أدب) بل أطلـق الكثيرون الزدب على التأليف عامة فى أي فرع من فـروع الكتابـــة.. ومنهم ياقوت الحمـــوى فى (معجـم الأدباء) على حين أطلقـــه بعضهم على النظـم والثقافـات الضرورية لفئة من المجتمع، كما فى كتب أدب الكُتّاب والوزراء والقضاة وغيرها.

ومن ثم يمكن أن نستخلص دلالتين للأدب عند القدماء عامة: معنى عام يدل على الإنتاج العقلى عامة مدونًا فى كتب . ومعنى خاص يدل على الكلام الجيد الـذى يحدث فى متلقيه لذة فنية إلى جانب المعنى الخلقي.

ولهذا فإننا نميل عن يقين إلى الرأى الئى يعتبر تراث الحكـــم والأمثال والمواعظ القديمة جزءًامن الإنتاج الأدبى لهذه الشعوب سواء كتبت للكبار أم للصغار..وسواء كتبت هذه الكتابات شعرًا أم نثرًا.. وسواء حفظها الناس أم التزمــوها فى سلوكهـم

وحياتهم[5].

ونظرًا لأن علم التربية بأسسه الحديثة قد أرسى نظرياتــه فى التربية والتسليم على ضوء العصر.. فإن من الطبيعى أن ينظر إلى ما أنتجته العصور السالفة على أنـه أدب (تلقائى) يعوزه الإطـــار أو الشكل أحيانًا.. بما يتناسب مع المتلقى كبيرًا كان أم صغيرًا.. على ضوء قدراته وعواطفه وغرائزه الخاصة.

ولهذا نقد الكثيرون نظرة القدماء إلى الطفل وأدبه.. واتهموهم بأنهم . وإن اعتبروا الطفل رجلاً صغيرًا . إلا أنهم لم يلتفتوا إلى قدراته وطبيعته وتكوينــه وأن له عالمًا خاصًّا يختلف حتما . عن عالم الكبار.. ويدلل هؤلاء على ذلك..بأن اهتمام القدماء قد انصرف إلى الحِكَم والمواعظ والتهذيب أكثر من الجوانب الأخــرى فى الأدب والمعرفة.. وأنهم إذا تجاوزوا ذلك يلجئون إلى الخرافات والحكايـات يستمدون منها أيضًا نزوعها إلى فرض القوانين الأخلاقية وعرض العظات الإرشادية الثقيلة.

ويضيف العلمــاء المحدثــون كذلك أن تلك الاتجاهــات القديمة . وهى تسعى إلى تكوين الأبناء بما يجعلهم يشابهون الكبار فى كل شىء . إنما تترجم ما كانت تدعـو بـه العقائد السائدة باعتبار الصغير جزءا من المجتمع المنتج وأنه يدخل . طبيعيًّا . في إطار العلاقات الاجتماعية والاقتصاديــة والدينية للأسر أو القبيــلة أو العشيرة أو الطبقة الاجتماعية.. ويلتحم مع قضاياها كتفا بكتف.

وتلك النظرة بلا شك تنطوى على كثير من الصدق والتشخيص الدقيق..إذاوضعناها خلال منظور عصرها.. ولم ننظر إليها من خلال عصرنا الذى تعقدت مفاهيمــه

[5]- قد يساند يقينى هذا كثير من تجارب الإبداع المعاصرة التى تلجأ كثيرا إلى التقريرية .. لكن ما أود إيضاحه أن المباشرة هذه كانت صالحة لظروف المجتمع القديم .. لكنها اليوم لا يمكن أن تقدم إلا بصورة مختلفة تحترم عقلية الطفل المعاصر الذى يشارك فى ظنى عالمه فى صعوبة التسليم بالمواعظ والحكمة المجردة.

وتطورت أساليب حياته.. بل تكاد . هذه النظرة تشى لنا بأن القدماء حاولـوا . قدر استاعتهم . أن يقتحموا ميدان التربية بما أتاح لهم تصورهم من الأدب .. والتهذيب والعلاقات المفيدة.

ولهذا فإننا نخلص . بعد هذا العرض السريـــع إلى اعتبار ما أبدعــه الأقدمـون لصغارهم من أدب.. يناسب طبيعة العصر الذى أبـدع فيه.. ويتلاءم مع طبيعـة العلاقات الاجتماعية ونظرة المجتمع إلى هذا الكائن الصغير الذى هو عضو منتج على قدر طاقته مثله مثل الكبير..

وسوف نتعرض لهذا الجانب بالتفصيل ونحن نتدارس أدب الصغــار فى مصر القديمة.. وأيضًا ونحن نطوف مع التراث العربى القديم.

<u>الطباعة وأدب الصغار:</u>

ويمثل اختراع المطبعة فتحًا كبيرًا فى انتشار الكتاب والوسائل التعليمية بصفة عامة ..بل أثر ذلك على كثير من جوانب الحياة المعاصرة..لقد وجدنا أنفسنا أمام نظرية جديدة فى التربية . يبدو أنها..انبهرت كثيرًا باختراع المطبعة فقدمـت لها ما رأتـــه مفتاحًا مناسبًا لعالم الطفل.. ودعت إلى سرعة إخراج كتب كثيرة له تستمد مادتها من الخرافات وأساطير والحكم والمواعظ كذلك.. ثم يتبلور هذا الأدب فى الغـــرب فى القرن السابع عشر ليستمد مقوماته من الحكايات الشعبية الشائعـة يلعـب فيهـا البطولة . الجن والشياطين والعفاريت والسحرة . وكانت أكثر هذه الحكايـــات قاسية تهدد الطفل بالعقاب والثواب . أي تدخل أيضًا ضمن الوعظ والتهذيب ولكن بصورة

أعنف.وحينما نمعن النظر إلى هذه الصورة نجدها انعكاسًا حقيقيًا لما ساد المجتمع فى ذلك العصر.. حيث كانت السلطة . مهما صغرت أو كبرت . تمثل مظهرًا من مظاهر القوة والسيطرة.. وكان لابد لرجال التربية أن يؤكدوا ذلك حتى لو كانت موجهة إلى هذا الكائن الصغير الذى يفتح عينيه على الحياة.. ومن ثم مثلت له مضامين الخرافات والقوى الخارقة . تلك السلطة المسيطرة التى يمكن أن تمنح الثواب وتفرض العقاب دون تردد.. وبحرية تامة وبحق مستمد من طبيعة وجودها.. وعلى الطفل . والكبير أيضًا . أن ينظر إلى أية سلطة نظرة الخنوع والطاعة والخوف كذلك. ثم يشهد أدب الأطفال فى منتصف القرن الثامن عشر نهضة أخرى فى إخراج الكتب.. ويعد المؤلف الناشر جون نيوبرى (1713 . 1767) أول من أصدر كتبًا للأطفال مصورة على ورق ممتاز فى إنجلترا.. حتى أنه فى عام 1922تقديرًا لجهوده . أنشئت مدلاة تحمل اسم نيوبرى لتمنح سنويًا لأحسن كتاب من كتب الأطفال يؤلفه أمريكى..وفى سنوات ذلك القرن كذلك ينادى الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو(1712 . 1778) بآراء جديدة فى التربية فى إطار (الإنسان الطبيعي).. فالإنسان لديه لا هو بالخير ولا هو بالشرير، وهو يؤمن بالسلطة النابعة من الإرادة المشتركة التى تعبر عن الصالح المشترك.. ويرى روسو فى التربية أن نترك للطفل فرصة تنمية مواهبه الطبيعية دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة فالتربية تنبع من داخل النفس ولا تأتى . فقط . من قراءة الكتب.. وهدف التربية الأسمى هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش.. وكيف يمارس

حياته بحرية كاملة.

ويشهد القرن التاسع عشر اهتمامًا آخر بكتب الأطفال على يد الشاعـر والروائي الدانماركي هانز كريستيان أندرسون(1805 . 1875) . الذى عاندته الحياة طويلا .. ولاقى صنوفًا من الفشل باحثًاعن عمل.. إلى أن واتاه الحظ فبدأ ينشر منذ عام 1835 رواياته.. كما نشر أول مجموعة من الحكايات الخرافية أظهر فيها إمكاناته الفنية فى مجال الطفل.. وأشهر حكاياته . البطة القبيحة،عسكري الصفيح الشجاع، عروس البحر الصغير، الحذاء الأحمر.

وربما ساعدت ظروف أندرسون على انتشار هذه الأعمال واعتباره واحدًا من رواد أدب الطفل.إلا أننا كذلك ينبغى أن ننظر إلى هذه الأعمال فى إطار تعاليم روسو . الذى دعا إليها فى عصره . فنجده يحاول الاقتراب منها لكن بشىء من التحفظ..ولا يعنى هذا أننا ننكر على أندرسون ريادته فى زمان تتصارع فيه القـوى السياسية والاجتماعية . وإن كان سبقه إليها وبجرأة أكثر جون نيوبرى.

ومنذ ذلك القرن.. والاهتمام بالطفل وأدبه يتخذ أساليب متعددة..بقصد الوصول إلى عقلية الصغير.. وإذكاء روح المغامرة والثقة بالنفس لديه.

وكما هى الحال فى أدب الكبار.. ينقسم أدب الأطفال إلى ألوان مختلفة: القصة . الشعر . المسرحية . الكتابـــــة الصحفيـة . الكتابة الوصفيـة والرحلات . الكتابـة التاريخية وسير الأبطال .. إلى غير ذلك من ألوان الكتابة.

أما أهداف أدب الأطفال:

فهى لا تقع تحت حصر.. وهى تتراوح بين:

- الأهداف الثقافية.
- تربية الخيال والذوق الأدبي.
- التعليم والتهذيب والأخلاق .
- الترفيه والمتعة وغيرها.

الطفل والأدب:

ربما نستطيع بقليل من الجهد التعرف على ميـول ورغبـات الكبير.. ومن ثم يمكن الكاتب أن يبدع أدبه للكبار دون أن يتحسس طريقة إليهم كثيرًا.

لكن الأمر يختلف حينما نقترب من عالم الطفل.. فى محاولة للتعرف على رغباته وميوله وتقديم الأدب الملائم له.. وقد نعود من كثير من رحلاتنـا تلك بالخيبـة والإخفاق.. ولعل هذا يفسر ذلك الجدل..الدائم الذى يثور هنا وهناك عن:ماذا نقدم للأطفال.. ومن هو الطفل؟ وكيف يتلقى من الكبير ما يقنعه ويمتعه؟.

وهذه الصعوبة نفسها هى التى دعت علماء النفس والتربية إلى اقتحـام هذا العالم المجهول ومحاولة تحليل أساليب التعبير التى يعبرون بها لكى يتعرفـوا . عن يقين غير قليل . على أسرار هذا العالم.

وينتهى علماء النفس والتربية إلى نتائج مرضية إلى حد كبير. فهم يحددون الأطفال بأنهم الذين لم يتجاوزوا السادسـة عشرة من أعمـارهم.. وأنهم كذلك يحملون ميولاً

واتجاهات وصفات خاصة متميزة ينبغى على من يكتب لهم أن يتفهمها خاصة أن الأدب يمثل الجسر الأول الواصل بين الكبير والصغير .. فى صـورة الكتـاب أو المجلة أو وسائل الإعلام المختلفة.

ولأن الثقافة تبدأ بالطفل . كما يقولون . فإن الأدب يجىء فى مقدمة الوسائط الثقافية وهذا الأدب يوجدمعظمه فى بطون الكتب.لهذا تمثل علاقة الطفل بالكتاب المفتاح الطبيعي إلى أبواب التعليم والتثقيف. ومن ثم تبرز أهمية القراءة فى مجال الطفولة وكذلك أهمية الكتابة إليها.

ويمكن فى هذا الصدد أن نؤكد باطمئنان كبير أن الكتابة للطفل عمل شاق..يتطلب قدرات خاصة لدى الكاتب.. وقد سئل الكاتب الإنجليزي صمويل بيكت: لمـاذا لا تكتب للأطفال فقال: لأنني لم أنضج بعد.!

ولا شك أن مثل هذه الإجابة تضعنا أمام دهشـة مسئولية صادقة حقًا.. فقد أدرك الكاتب الكبير دور كاتب الأطفال.. وأدرك أيضًا أن الطفـل ليس تلك الشخصيـة التابعة المنقادة.. وإنما هو فى الحقيقة قارىء نقَّاد.. ومتفرج نقاد..لا يمكنه أن يرائى أو يفصح عن شيء لا يعتقده ولا يؤمن به.

وتُروى فى هذا الصدد تلك القصة التى كتبها (هانز كريستيـان أندرسون) بعنـوان (ملابس الإمبراطور الجديدة)لتقوم دليلاً على صدق هذه المقولة.وتحكى هذه القصة أن إمبراطورًا أراد أن يلبس ملابس جديدة لم يلبسها غيـره، فتسابق إليه الخياطـون من جميع بقاع الإمبراطورية يعرضون عليه الأقمشة الفاخـرة من ذهب وفضـة

مطرزة فريدة تفوق كل وصف، غير أن الإمبراطور كان يرفضها جميعًا.

وظل الإمبراطور على تلك الحـال حتى جـاءه رجل يعرض عليـه قماشا سِحـريًّا لايراه إلا الأذكياء، أما الأغبياء فلا يستطيعون رؤيتـه، وقَبِل الملك ذلك العـرض، وجاء الرجل بمعزله، وظل يعمل فى القصر، وكان الإمبراطور يدخل عليه .. كل يوم..فلا يرى شيئًا على المغزل، لكنه لم يكن يفصح عن ذلك حتى لا يقال عنه إنه غبى. بل على العكس، كان يبدى إعجابه بالقماش الذى لا يراه، وكما فعـل الإمبراطـور..فعل وزراؤه وحاشيته حتى لا يتهموا بالغباء، والرجل يعمل كل يوم على مغزل خالٍ تمامًا، ويتلقى عبارات الإعجاب من الإمبراطور ووزرائه.

ويعلن الرجل الانتهاء من غزل القماش، ويبدأ فى تفصيـل الحلة للإمبراطور وسط الإعجاب الكاذب من الجميع،وتنتهى مهمته،ويجزل الإمبراطور له العطـاء والهدايا.

يقرر الإمبراطور أن يلبس حلته الجديدة ويسير بها فى موكـب كبير فى شوارع العاصمة، وتحتشد..الجماهير لمشاهدة . الحلة المعجزة . التى لا يراهـا الأغبياء، ويسير الإمبراطور وحوله حاشيته، وتتعالى صيحـات الإعجاب من الحشود على جانبي الطريق.

وفجأة يصرخ طفل "يا إلهى.. إن الإمبراطور يسير عاريًا.. إن الإمبراطـور يسير عاريًا" وسرعان ما وجد صراخ الطفل صداه، فتتصاعد أصوات الجماهير لتكرر كلام الطفل، وتنكشف الخدعة الكبيرة!

ذلك هو الطفل . المخلوق . الذى لا يعرف الرياء إلى قلبه سبيلا، فإذا شاهد مسرحية

لا تعجبه تململ فى مقعده، وإذا شاهد فيلمًا رديئًا فضَّل عليه النوم، وإذا قـرأ كتابًـا مملا أو مجافيًا للحقيقة تركه.. ذلك هو الطفل القارىء النقَّاد، المشاهد النقاد.

من هنا كان التعامل مع الطفـل يتسم بحساسيـة دقيقة، ويطرح عددًا من الأسئلة . خاصة فى مجال الكلمة المكتوبة أهمها:

- من يكتب ؟
- ولمن يكتب ؟
- وماذا نكتب؟
- وإلى أي شيء نهدف؟
- ومتى نقدم الكتاب للطفل وكيف نقدمه؟
- وما اللغة المناسبة لمراحل الطفولة؟

إلى آخر علامات الاستفهام المعروفة..إن الكتابة موهبــة قبل كل شيء، وإذا كانت الموهبة تنضج وتنمو بالعلم والخبرة فإنهــا ضــرورة بالنسبــة لكاتب الأطفال الذى يتمثل فى تكوينه الثقافى دعائم ثلاث رئيسية تقوم على اعتبارات ثلاثة هى:

1 . اعتبارات تربوية وسيكولوجية خاصة بتعامــل الكاتب مع الطفل فى أعماره وبيئاته المختلفة.

2 . اعتبارات أدبية وفكرية تؤهله للاتصال بالطفل اتصالاً وثيقًا شائقًا.

3 . اعتبارات فنية خاصة بالكتاب وسيطًا للطفل.

وإحداث نوع من التوازن بين تلك الاعتبارات يفسر تمامًا إلى أى مدى يقبل الطفل من الكاتب ذلك العطاء اللغوي والفني معًا.

وهناك من يؤكد أن الطفل يولد مزودًا بحاجة فطرية إلى التعبير، وبميول واضحة إلى محاكاة ما يستمع إليه من أصوات تعد اتجاهات إلى المناغاة، وتلاعبًا بالأصوات، كما أنه يولد أيضًا مزودًا بقدرة فطرية على تعلم اللغة، واكتساب مهارتها.إنه يلجأ إلى التعبير عن ذاته بالصياح.. وسرعان ما يترجم ذلك فى بضع كلمات، ثم يبدأ فى استخدام..الحديث التقليدي الذى يبدأ بالكلمات البسيطة فالمركبة.

لقد قام كثير من الباحثين بالتعرف على خصائص لغة الطفل المعاصر، بقصد لتعرف على قاموسه..اللغوى، وعلى أكثر الكلمات شيوعًا فى حديثه، وعلى مفاهيمه المختلفة، والمعانى التى يقصد إليها حين يعبر، والتى تختلف بالتأكيد عن مثيلتها عند الكبار، ويشير الدكتور محمد محمود رضوان إلى بعض تلك الخصائص فى كتابه (الطفل يستعد للقراءة) على هذا النحو:

1 . يغلب على لغة الطفل أن تتعلق بالمحسوسات لا بالمجردات.فالطفل أول ما يتعلم الحديث يبدأ بما تقع عليه حواسه، وبما يطلق عليه علماء اللغة(أسماء الذوات) فى مقابل (أسماء المعانى).. فهو يتعرف فى البداية على (بابا) و(ماما) و(لبن) و(رغيف).. إلخ ثم على (أرنب) و (قطة) و(دمية) و (كرسى).. إلخ ثم يتبع ذلك الأفعال.

أما أسماء المعنويات مثل (حب) و (حنان) و (فرح) و (نسيان).. إلخ فتختلف عن سابقتها إذ تقتضى خبرات معينة فى مواقف تهيء للطفل عملية (التعميم) . وتلك القدرة لا تأتى للطفل إلا متأخرة.. ولذا فمن العبث أن تشتمل المادة القرائية لطفل الابتدائى على كلمات مثل (الحرية) و (الكرامة) و (الواجب).

2 . يغلب على لغة الطفل أن تتركز حول النفس:

وعلة ذلك أن الطفل قبل سن دخوله المدرسة غير اجتماعى، وإنما تغلب عليه روح الأنانية ويصفه آخرون أنه شرير بطبعه.

وفى هذه السن قد يلعب الطفل مع غيره من الأطفال، لكنه سرعان ما ينفصل عنهم عقب تنافس أوشجار، أو لأنه وجد غيرهم، وقد يشترك مع غيره باسمًا لكنه سرعان ما يغادر أصدقاءه باكيًا لأنهم لم يحققوا له رغبته الخاصة فى الاستئثار بشيء ما.

وإذا راقبنا الطفل فى سن دخوله المدرسة لفت نظرنا فى حديثه تكراره للضمائر التى تدل على المتكلم مثل (أنا).. والتاء فى مثل (لعبت) والباء فى مثل (ضربنى). بل نجد الطفل يكرر كلمة (أنا) حيث يمكنه الاستغناء عنها بمجرد العطف، وهو يفعل ذلك إمعانًا فى إحساسه بنفسه وتأكيدًا لذاته.

3 . يغلب على لغة الطفل البساطة.. وعدم الدقة والتحديد.

4 . للطفل مفاهيمه وتراكيبه الخاصة فى الكلام.

ومن ذلك مثلا أن كلمة (بحر) تعنى للطفل المصرى فى سن الثالثة أو الرابعة أى

كمية من المـــاء تجمعت فى مكان ما سواء فى الحمام أو فى أرض الحديقة، فإذا بلـــغ الطفل السادسة فـإن الطفـل يعنـى بها (الترعة) أو (النهر) أو (البحيرة) أو (البحر)وينتهى الدكتور محمد محمود رضوان إلى نتائـج تستحق التقدير.. وتفتـح الطريق أمام كاتب الأطفال فى استخدام ما يشبه قاموس اللغة الملائم الذى يخاطب به الطفل، وتعطيه مؤشرات عن تلك المفاهيم الأثيرة لدى الطفل.

وهناك ملاحظـة هامـة فى هذا المجال تتعلـق بلغة الطفل التى ينبغى أن يقرأ بها كتبه،فكثيـر من كُتاب الطفـل يلجأ إلى (اللغـة العامية) توهمًـا أنها أصلح الأدوات المؤثرة فى ثقافة الطفل ولا ينطبـق ذلك على الكِتـاب فحسب، بل نجـده كذلك فى معظم وسائل الإعلام والثقافة التي تخاطب الطفل.

ولنا أن نتصور ذلك الطفل المسكين الذى نوقعه فى متناقضات نفيسة وتربوية دائما ، فهو يذهب إلى مدرسته ليتلقى تعليمـه فى كتبه المكتوبة باللغة العربيـة الفصحى المبسطة، ويحفظ أناشيده بها كذلك، ثم يجلس أمـام الشاشـة الصغيرة ليفاجأ بلغـة أخرى مختلفـة ويجدها كذلك فى المذيـاع حينما يستمع إلى برامجه الخاصـــة، إنه ولا شك مسكين أمام ذلك (الانشطار) اللغوى الذى يعانيـه، فلمـــاذا لا تكـون اللغة الفصحى المبسطة هى لغتنا فى مخاطبة الطفل،ولماذا يخشى كاتب الطفل استخدام هذه اللغة،إنه لن يكلف نفسه مشقة البحث عن الكلمة المناسبـة إذا هو وضع نفسه مكان القاريء الصغير، واستخدام القاموس الملائم له!

لقد وضعت بعض المحاولات لإنشـاء قاموس شائـع بالمفردات التى يتقبلها الطفـل ومع تحفظى الشديـد على مثل هذه المحاولات.. إلا أنها محاولات تستحق التقدير، فماذا لو جرب الكاتب أن يكتب ما يريد فى أبسط المفردات فبلاً من أن يقول(ياكل)

بالعامية.. يضع الهمزة على الألف ليقول (يأكل)، وبدلا من (ياخد) يقول (يأخذ) بل يبتعد عن مشاكل اللغة المعقدة التى يغرق فيها الكبار أنفسهم.

إن اللغة العربيــة تحتـوى على مفــردات ومترادفات ثرية قابلة للاختيار والاستخدام الأنسب فى أى.مجال. بعكس اللغة الأجنبية مثلا.. فقد تقابل مفــردة عربية واحدة عدة مفردات من اللغة الأجنبية مثل:I have eaten it تعنى باللغة العربية (أكلتها): كلمة واحدة فى مقابل أربع كلمات.. مما يحفز على اكتشاف ثراء تلك اللغة الأصلية وجذب انتباه الطفل إليهـا من أيسر الطرق.. كما يتصـور بعض الباحثين أن كتاب الطفل مرتبط بسن معينة من عمر الطفل، تلك السن التى تؤهله للدخول إلى المرحلة الأولى من الدراسة. وهـذا اعتقاد خاطىء يؤدى . منذ البداية . إلى قطـع العلاقــة المرتقبة بين الطفل والكتاب ذلك أن الطفل ينبغى أن يكتسب تلك الخبرةالمتمثلة فى علاقته مع الكلمة المكتوبة قبل أن يدخل المدرسة.

ولعل ذلك يفسر ضرورة أن ينشأ الطفل فى بيئة تشجـع على القراءة، وفى بيت لا يخلو من مكتبة للكتب، فيشاهد الكبار كيف يتعاملون مع الكتاب، ويحاكى دورهم في ذلك الصدد بنفس العناية والاهتمام.

ومثل ذلك الطفل يذهـب إلى المدرسة مسلحًا بتلك الخبـرة الخاصة، فيقبل بسعادة وشغف على كتابه المدرسي.

إن مرحلة ما قبل القراءة مرحلة هامة فى تكوين قدرات وملكات الطفل، وإذا تراجــع الكتاب عن دوره فى هذه المرحلة، فسيؤثـر ذلك بالضـــــــرورة على تلك القـدرات والملكات..وليس المقصود هنا أن يكون الكتاب بالمفهوم العام المتعارف عليه، وإنما

ينبغى أن يفى بحاجة تلك المرحلة من العمر، فهو يقترب من الألعـاب، وتسـاهـــم الحواس المختلفة فى التعرف عليه، لقد أدرك..ذلك كثير من المتخصصين فى الدول المتقدمة فقدموا الكتاب المصـوَّر والكتاب المجسَّـم والكتـــاب الموسيقى والكتاب المطرَّز على ورق مقوى يقاوم عبث الأطفال، ويقسم الباحثون سلوك الأطفال فى سن ما قبل القراءة إلى مراحل مختلفة أهمها:

1 . مرحلة التناول باليد:

حيث ينظر الطفل إلى أى شىء حوله فيضعه فى فمه، ويمسكه بيده، ويسقطه على الأرض، وينتزع الورق ويمزقه.

2 . مرحلة الإشارة إلى الصور:

وتبدأ هذه المرحلة مع بداية الشهر الخامس عشر من عمر الطفل، وهنا تقوم الأم بدور رئيسى حيث تقلب له صفحات الكتاب فى حين يستمتع الطفـــل بمشاهدة الصور المألوفة (الكرة . القط . المقعد)وأفضل الكتب لهذه المرحلة تلك المصنوعــة من صحائف من القماش أو أية مادة تقوى على تحمل ما يوجهـــه الطفل إليها من سلوك عنيف.

3 . مرحلة تسمية الأشياء:

وتبدأ مع بداية الشهر الثامن عشر.. حيث يسأل الطفل الكبار عن الصور:ما هذا؟ أو هو يبدأ يقلّد أصوات الحيوانات التى يرى صورها.ويبدأ الطفل هنا فى اكتساب معلوماته عن طريق الكتاب.

4 . مرحلة حب القصص القصيرة البسيطة والكلمات المنغَّمة:

وتبدأ بعد تمام عامين من عمر الطفل وتمتد إلى ثلاثة أعوام، وفى هذه المرحلـــة يسمى الطفل عملية النظر إلى الكتاب (قراءة).. ويحب أن يرى شيئا يحدث فى كل صورة يراها (مثلاً.. ولد يلعب بالكرة، كلب يجرى وراء قطة)..

وفى هذه المرحلة أيضا يظهر الطفل إدراكه للحروف باعتبارها شيئا آخر يغطـــى جانبًا من الكتاب.

5 . مرحلة البحث عن المعانى:

ما بعد ثلاث سنوات حيث تبدو الصور وكأنها أشياء حقيقية حية يتعامل معها ويتأثـر ببكائها وفرحها.. وفى هذه المرحلة يستمتع الطفل بالأغانى المسجوعـــة والأناشيد، ويهتم بالمعلومات عن أشياء يودالتعرف إليها مثل السيار والطيارة والقطـار..ويبـدأ الطفل فى تخصيص مكان لحفظ كتبه.

6 . مرحلة سرد القصص وملاحظة الحروف: وتأتى مع العام الرابع.

7 . مرحلة المهارات: ما بعد الرابعة إلى الخامسة حيث يحب الكتـاب الذى يحتوى على حقائق أو خيال.. أو صور كاريكاتورية.

أما مراحل ما بعد القراءة فهى أربع أساسية:

(أ) مرحلة اكتساب العادات الرئيسية للقراءة.. وتمتد من السادسة إلى السابعة حيث يكتسب الطفل قدرته على مزج الكلمات وتكوين الجمل.

(ب) مرحلة النمو السريع فى إتقان المهارات الأساسية لقراءة.. وتمتد من الثامنة إلى العاشرة وفيها ينتقل الطفل من تعلم القراءة إلى القراءة للتعلم، وتزداد سرعة الطفل فى القراءة الجهرية والصامتة، وينبغى أن يكون الكتاب هنا شائقًا، ميسَّرا فى لغته.

(جـ) مرحلة التوسع فى القراءة.. وتمتد حتى الرابعة عشرة.. وتتكون فيها الثروة اللغوية للطفل.

(د) مرحلة النضج: وتمتد إلى السادسة عشرة وفيها تأخذ اهتمامات القراءة في التخصص..وهكذا نقترب من عالم الطفل بما يتيح لنا أن ندخله ونحن نعرف عنه الكثير.

***

وكان لا بد لنا من القيام بهذه الرحلة الموجزة.. لكى ننتحى فى الخطوة القادمة زاوية من زوايا هذا العالم وهو عالم الشعر.. نجوب آفاقه.. وتاريخه مع الطفل . ما وسعنا الجهد والوقت ..

الطفــل.. والشعــر

تمهيد فى عالمى الشعر والموسيقى:

يقرر (نيتشة) فى شىء من التأكيد والسعادة أنه: لولا الموسيقى لكانت الحياة خطأ!

ولقد اهتدى الإنسان القديم إلى الموسيقى قبل أن يهتدى إلى اللغة.. بدأها بالصيـاح على زميله من أجل أن يستجيب له أو يقضى له حاجته..وهذه صورة بسيطة تابـع الإنسان القديم صداها فى عالمه.. حتى اعتقـد أن بداخـل الأشياء الطبيعيـة مثل الشمس والقمر والأشجار والحيوان والنار. آلهةطيبة وأخرى شريــرة.. ولكى ترضى هذه الآلهة كان الناس يصيحون إليها ويرقصون.!

ثم بدأ الناس يصفقـون بأيديهم بمصاحبـة الصياح والرقص . ثم بمصاحبة كلمات مغناة فيما بعد . ويستغـرق أحدهم فى نشوة غامرة.. فيضرب جذع الشجرة بعصا.. لتظهر أول آلة موسيقية.

ثم يكشف أحد الناس بعد ذلك أن الريح تحدث صوتًا متميزًا لطيفًا حينما تمرفى نفق جبلى، بل يتغير هذا الصوت بتغير طبيعة هذا النفق.. كما يلاحـظ صياد ذكى أن النقر على أوتار قوسه يحدث صوتًا مختلفًا جميلا.

واليوم تُبنى جميع الآلات الموسيقية على هذه الأسس الثلاثة:الضرب . النفخ . النقر وهذه الآلات نفسها هى التى تمتعنا بالأنغام الموسيقية العذبة.

ولابد أن الإنسان حاول كثيرًا أن يحاكى تلك الأصوات والآلات بفمـه.. لكنـــه

استعاض عنها باللغة..فكون كلماتها بأنغام وأوزان خاصة.. ووضع لها مقاييسها الخاصة التى استعيرت من إيقاعات الموسيقى.. فالنطق ما هو إلا مجموعة من الحركات والسكنات التى تتواءم مع الذوق ومع استعداد حاسة السمع.

ولهذا اعتبر الشعر من الفنون الجميلة.. بل انتمى إلى فنون الزمان (الجمال المتحرك) التى تشمل الموسيقى والشعر والغناء والرقص .. على حين اشتملت فنون المكان (الجمال الثابت) العمارة والتصوير والنحت.

ويقرر العلماء أن الوظيفة الحسية والوجدانية للموسيقى واضحة بينة.. وليس غريبا أن تعبر عن..انفعالات داخلية..ما دامت هذه الانفعالات نفسها هى سبب وجودها وبعثها.

ولا يختلف أحد على أن الموسيقى تهدف دوما إلى الإفصاح عن بعض الأحاسيس وإيقاظ بعضها الآخر.. ومن ثم اهتم الموسيقيون دائما بالبحث عن النبرة الصادقة.. وعن صدى نبضات القلب في..هذا الفن الذى يعبر بلا كلمة مفهومة..ويحمل ميزة خفية أكثر غموضًا من مجرد إثارة الوجدان..وهى القدرة على خلق صور.. إن هذه القدرة الغامضة للموسيقى على خلق الصور.. نجدها على الطرف الآخر أقل غموضًا وأكثرمنطقية فى الفنون الي تخضع للتفسير والتعليق مثل الرسم والنت والشعر.. وما تفعله الموسيقى بلا شك يتصف بالروعة والعجب معا .. لأنه يتم عن طريق قوًى خفية للصوت بدون أن يُخطَّ سطٌرواحد.. وبدون أن تستخدم كلمة واحدة.. وهذه القوى الخفية قد تقود الإنسان إلى الحلم وإلى أفكار كثيرة تتعلق

بهذا الحلم.

ومن ثم يقترب جوهر الموسيقى من جوهر الشعر الذى يجتهد فى تحويل الواقع إلى الحلم.. وفى ترطيب الحلـم بالصـورة والإحساس لعله يصبــح واقعًا.. وهنا تتبلــور أهمية الكلمة ويصبح لها المقام الأول لحمل تلك الأحاسيس التى وإن وقعـت بعض الوقت فى غموض القوى الخفية .. لكنها سرعان ما تبلغ لحظـات الكشف والتنوير فيحسّها الإنسان بكامل حواسه.

والتوافق بين الكلمة الشعرية والموسيقى تقوم على أسس نفسية وفنية معروفة.. وإذا لم يكن هناك توافق مطلق بينهما، فسوف تبــدو الموسيقى وكأنها على غير صلة بالكلمة .. وينعدم عندئــذ التأليــف بين عنصري الإحساس . الإحساس بالكلمــة والإحساس بالنغم . بما يجعله مبلبلا.

وكلما اقترب كل من الشعر والموسيقى إلى محاكـاة الطبيعة كان كل منهمـا أكثر صدقًا مع نفسه وصدقًا مع المتلقي.

ولا يعنى هذا أن التطابق بين الفنين مطلق لا ينفذ منه الهواء.. لكنهما مهما افترقا فإن ملامحهما الشكلية . على الأقل . تردهما إلى تلك الأرض المشتركة التى تتجلى فى كثير من المظاهر. فالأصوات الموسيقيــة . كالكلمـات . تتألــف منها عبارات وجمل وفقرات.. والحركات الموسيقية الكبيرة ما هى إلا تتابع فقرات يتصل بعضها ببعض اتصالاً منطقيًا.. تمامًا مثلما تتصل أبيات القصيدة..الواحــدة أو الدرامــا المسرحية.

والأدب عامة يرقم بعلامات الترقيم (كالشولة وعلامة الوقف والنقط وما إليها) وقـد اتخذ الشعر علاماته الخاصة. وخاصة (الشعر الحديث) أو هو تخيَّر من العلامات ما يلائم طبيعته، لأنه يحاول أن يقترب من لغـة الحكي المعاصرة.. بل تكـاد تلك العلامات تمثل لدى بعض الشعراء جانبا مهمًّا من التشكيل الشعـرى أو مفاتيــح الدخول إلى عالم القصيدة.

ولا يكاد الأمر يختلف فى الموسيقى..فهى ترقم كذلك بواسطة تآلفات متتابعة تعرف باسم القفلات..(Cadences).

أما الرنين الخاص بكل قفلة فيعرفه كل دارس للموسيقى.. ويمكـن أن نقول فى هذا المقام إن القفلات تنقسم إلى ثلاثة أقسام عريضة:

قفلة توحى بشعور الراحة، وقفلة توحى بعدم الانتهاء.. وقفلة توحى بالمفاجـأة أو المقاطعة وهى . بمثابة نهايات الكلام فى الشعر . تعبير عن الحالة النفسية..

وهناك أيضا تشابه إيقاعى نسبى فى نهاية العبارات مثل نهايات الأبيات فى الشعر ..وهذا البناء الشكلى المتشابه بين عالمــى الموسيقى والشعر يؤكــد اقترابهمـــا وامتزاجهما.. ويؤكد كذلك أن هذا الكون الذى يحيط بنا كون موسيقى شعرى.. فهو فى حقيقة الأمر عالم رنان يتألف من سيمفونية طبيعية منسجمة مع أجهزة الإنسان الحسية فتستجيب لها بالاضطراب والتنافر أو التمازج والاستمتاع.. حتى يمكننا أن نقول بأن السكون المطبق ليس له وجود.

وإذا كانت الموسيقى تقاس بوحدات الإيقاع (Rythme) فإن الشعــر كذلك يقاس

بموازين إيقاعية يطلق عليها عَروض الشعر.

الطفل . الشعر . الموسقى:

يقول كثير من علماء الجمال وفلاسفة الإبداع بأن الطفل يولد مزودا بحاسة سادسة يدرك بها ما فيالأعمال الفنية من سحر وجمال.. ويستجيب إليها.. ويتـوقف نمو الحاسة على مدى رعايتها وإرهافها للتذوق.

كما يرى فريق آخر أن الإحساس بالجمال أمر اعتبارى شخصى نختلف فيه جميعًا وتتوقف قدرتنا على هذا الإحساس على كثير من العوامل الشخصية والمكتسبة من التجارب التى يعيشها الإنسان.

لكن الفريقين يتفقان بالنسبة للطفل على أن النغـم وموسيقى الكـلام يسبقان إدراكه لمعاني هذا الكلام وألفاظه المفردة.

فالطفل فى سنواته الأولى مرهف الحواس.. وربما كانت حاسة السمع أكثر حواسه إرهافًا.. إذ يتلقى سمعه . تلقائيًا . مجموعة متباينة من الأصوات لا تقع تحت حصر وهو لا يزال فى مهده غير قادر على الإدراك البصرى لمن حوله.

وأول صوت يدركه الطفل ويتبينه هو صوت الأم . خاصة حينما يبكى وتندفع إليه أمه تربت فوق صدره أو تمسك بمهده الصغير فى هزة رقيقة مصحوبة بموسيقى صادرة من قلبها تنسجم مع.إيقاعات المهد الصغير،وتسمى هذه الأنغام العذبة التى تصدرها الأم (المناغاة)[6].

[6]- يمكن أن نضيف فى هذا الصدد ما يسمى بأغاني المهد، وهى أناشيد قد تعتمد على تكرار كلمات أو جمل بعينها قد تخلو من المعنى لكنها تلتزم إيقاعا بسيطا منسجما يمتع الطفل..

إن الطفل الصغير يدرك بأذنيه صوت أمه المنغَّم .. فيكف عن البكـاء لإحساسـه بالأمان.. وإحساسه أيضا بأن شيئًا جميلاً سوف يهبط عليه بعد حضور أمه.

وهذا المران السمعى هو الذى يعد الطفل فى سنواته الأولى للتمييز بين الأصوات المنسجمة..ولتلقى الكلام الموزون على إيقاعات الموسيقى فى سعادة وسرور فيمـا بعد.

إن التلقائية الأولى لدى الطفل لقبل الموسيقى والشعر.. أدركها كثير من المفكريـن ورجال التربية..واعتبروها عنصرًا هامًّا من عناصر التربية الوجدانيـة والثقافيـة معًا.. وقد عبر (روسو) عن هذا الجانب الذى يتعلق بالشعور الإنسانى فى قولـه: مهما اختلفت الوجهات التى نوجه إليها الطفل.. فإن الطبيعة من حوله تدعوه . أولا . إلى الحياة الإنسانية.. إن الحياة هى المهنة التى أريد أن أعلمه إياها.. فإذا خـرج من يد المعلم فلن يكون قاضيًا أو جنديًّا أو رجل دين.. وإنما يكون أولا.. إنسانًا!

وما من شك أن هذا الجانب الإنسانى ما هو إلا قاعدة الإبداع الشعرى فى كـل زمان وفى كل أمة..

لقد أدرك الشعراء . منذ كـان الشعر . تأثير هذا اللون من الأدب على الأطفـال.. فالشعر يكاد يترجم حركات الطفل التلقائية.. ولغته الأولى وأجهزة وعيه وشعوره.. إنه يستجيب له استجابات ممتعة حميمة.

وفى الدراسات الحديثة للإيقاع.. يتأكد دوره فى العمل والإنتاج والإقبال على الحياة لأن الإيقاع بطبيعته مثير قوى لمناطق الحس والمشاعر الإنسانيـة.. والكلمة التى

تُصب فى الإيقاع تملأ فراغ الوجدان بالحث على الفعل والنمو العقلى والعـاطفى والأخلاقي.

وفى مجال الطفولة لا يختلف الأمر كثيرًا. فنحن نلاحظ أن الطفل كثيرًا ما يتعلـق بالنص الذى يحتوى على إيقاعات راقصة متكررة.. فالجملة الإيقاعيــة التى تقابـل جملة تماثلها تقريبًا فى الحروف تصبح أعلق بذهن الطفل وأكثر التصاقًا به.. لأنه يغنيها ويرقص عليها أحيانًا ويحفظها بيسر وسهولـة.. وبالتالى يتحقــق النجـاح للشاعر حينما يدق على مشاعر الطفل بإيقاعات مبسطة.

إن الشعرلابد أن يستفيد فى مجال الطفولة من عالم الطفل نفسه.وإذا أراد أن يعرِّفه على عالم آخر.. عليه أن يمهده إليه فى حب وتشويق..والنغم الشعرى قريب جـدًّا من مشاعر الطفل الداخلية المنسجمة.. ويمكن أن نلاحـظ ذلك عنده حينما نطالبه مثلاً بتركيب أجزاء مفككة فى لعبته بحيث تأخذ شكلاً منسجمًـا.. إن الطفل لا يلبث بعد مران قليل أن يكوِّن تلك الأجزاء المتناثـرة فى شكـل (منغَّم) منتظــم . ينتظمه إيقــاع..نفسى وفنى . لأنه استجاب لمشاعره الداخلية المنسجمــة..لكن إلى أى حد فطن..الإنسان على مدى الزمان الطويل إلى حقيقــة وجـــدان الطفل ومدى ارتباطه..بالشعر..هل استطاع الشعراء حقًّا أن يقِّدموا للطفـــل ما يمتعه ويهـذب سلوكه ويـقوم ثقافته..؟

سوف تكون الصفحات التالية رحلة بحث وتنقيب وراء الإجابة عن هذه الأسئلة من أجل هذا الكائن المعجز المشاكس . الطفل .!

شعر الأطفال فى مصر القديمة

أجمل الحكيم المصرى القديم (بتاح حوتب) دستوره فى التربية حين قال:

"إذا نَضِجْت.. وكونت دارًا.. وأنجبت ولدا من نعمة الإله.. واستقام لك هذا الولـد.. ووعى تعاليمك.. فالتمس له الخير كله.. وتحر كل شىء من أجله.. فإنه ولــدك. وفلذة كبدك.. ولا تصرف عنه نفسك".

. وجاء فى تعاليم مصرية متأخرة.. ما يؤكـد مسئولية الآباء فى تربية أبنائهم على هذا النحو:" إنه تمثال من حجر ذلك الأبن الذى لم يعلمه أبوه..".

وكان المصرى القديم يحرص على كثرة نسلـــه.. ويعمـل على حسن تعليـم أولاده وتربيتهم.. وما كان يعرف سبيلاً إلى السعادة من حُرم نعمة الإنجاب غير اللجوء إلى التبني.

ولم يكن هذا الحرص إلا ترجمة تلقائية لرغبة الآباء فى أن يكـون أبناؤهــم عنصرًا من عناصر الإنتاج فى المجتمع . كما هى الحال الآن فى تمسـك الفلاح المصـرى البسيط بكثرة النسل وتشككه فى الوسائل الميكانيكية الحديثــة أو ما يسمى بالميكنة الزراعية.

ويذكر تاريخ أواخر الدولة القديمة أنه حين استبد الضعف والوهن بالبــلاد.. أخـــذ الحكيم المصري(إيبوور) يبصر أولى الأمر بما ساقته تلك الحال من قلة المواليد قائلا:"حقًّا لقد غدت النساء مُقلات.. وما من واحدة تحمل.. وما عاد الإله . خنوم .

يبنى أطفالا!".

أما العناية بالأطفال.. فلم يكن الرجل وحده من يقوم بهذه المهمة.. فقد شاركت الأم زوجها فى ذلك مشاركة فعلية.. ولعلها بدورهـا هذا قد تبوأت مكانتها الاجتماعيـة والأسرية كذلك، وأشاد بدورها كثير من الكتـاب فى الأدب المصـري القديم.. ومـن ذلك ما جاء فى تعاليم الحكيم آنى:" اعط المزيد من..الخبز لأمـك واحملهـــا كما حملتك..لقد كنت عبئًا ثقيلاً عليها.وحين ولدت بعد تمام أشهرك حملتك على كتفيها .. وظل ثديها فى فمك ثلاث سنين كاملة ولم تكن تشمئز منك..وهى التى أدخلتـك المدرسة لتتعلم الكتابة.. وظلت تنتظرك كل يوم.. وتحمل إليك الخبز والجعـة من منزلها.. وعندما تصبح شابًا وتتخذ لك زوجة.. وتستقر فى منـزلك.. فضع نصب عينيك كيف ولدتك أمُك.. وكل ما فعلته من أجل تربيتك.. ولا تلجئهـا إلى لومك أو الشكوى إلى الإله.!".

وقد صور المصريون القدماء السماء على شكل امرأة . ورمزوا بها للإلهـة (تحوت) التى اتخذوها إلهة للسماء . وهم بهذا يؤكـدون فضل الأم وحنانهـا وتضحيتها في تربية أولادها..أدرك الصرى القديم . إذنأهمية أن يعنى بتربية أبنائـه.. وكثـرت في ذلك الأمثال والرسائل التى تحض الآباء على تثقيف أبنائهم وتعليمهم وتهذيبهـم في كافة مناحى الحياة وما صوره فنانو تل العمارنة مما كـان بين أخناتون وبناتـه من تعاطف وحب وحنان أشهر من أن يذكر.. وقد أطلـق المـؤرخ N.Davies على أخناتون فى هذه الصورة . أول رجل يحب الأطفال (أو) أحب الناس إلـى الأطفال .

وتجاوز ما اشتهر به أخناتون من أنه (أول فلاسفة التاريخ).

وهناك ملاحظة أبداها بعض المؤرخين وتشكك فيها بعضهم.. تتعلق بأن المصريين القدماء . مثلهم مثل كثير من الشعوب.. كانـوا يؤثرون الولـد على البنت فى كثير من الأمور.. فالأب يشرك ولده فى متعـــة الصيد.. وفى أعمال الزراعة.. ويؤثـره أيضا فى التعليم..وإن صح ذلك فهو يؤكد لنا استمرارهذا الإيثار فى القبائل العربية . فيما بعد . وبعض مناطق الوجه القبلى.. ومع هذا فإن المصري القديم كان يرحب بقدوم الولد أو البنت بنفس الحب ونفس الإيثار.. ونفس السعـادة.. بل نجـد الآباء والأمهات . فى نقوش كثيرة قديمة . كانوا يشاركون أبناءهم من الجنسين متعة اللعب .. والغناء..والرقص والضحك.. وكان صدى هذا واضحا لدى الأطفال فى شعورهم بالسعادة الإقبال على طاعة الوالدين..

ويعتبر المصريون القدماء فترة الطفولـــة من أدق الفتـــرات التى يحرصـــون على الاهتمام بها.. لإيمانهم بأهمية تنشئة أبنائهم تنشئة جيدة صالحة.

التربية والتعليم فى مصر القديمة

إن الغريب فى مصر القديمة أن التعليم فيها يتضمن ست مراحل تعليمية وتثقيفيـة هى:

1 . مرحلة تعليمية أولية يتلقى فيها التلميذ تعليمـه فى مدرسة متواضعـة ملحقة بالمعبد.. أو فى مكان تابع لمعلمه..وهذه المرحلة تعنى أساسًا بتعليم القراءة والكتابة .

2 . مرحلة تعليمية متقدمة (المدارس النظامية العامة).

3 . مرحلة تطبيقية (تدل عليها كراسات تلاميذ عصر الرعامسة) . حيث كان التلاميذ يحضرونها في مكاتب العمل فى الإدارات الحكومية المختلفة.

4 . منهاج تربوى تثقيفى . وهى مرحلة شبة حرة.

5 . ثقافة عالية تالية للمرحلة السابقة تعهدتها دور الحياة فى العصور المختلفة.

6 . ثقافات متخصصة ومذاهب عرفت بها بعض المدن الكبرى.. والمعابد ومدارس الكهنة وتعتمد على المكتبات ونشاط العلماء.

ومن الطبيعى أن يكون لكل مرحلة مناهجها الخاصة بها بما يتلاءم مع قدرة التلاميذ على الاستيعاب، وقد حاولت جاهدًا . كما نفعل الآن . أن أتعرف على سنوات العمر فى كل مرحلة من هذه المراحل..

فلم أجد ما يوضح ذلك تمامًا.. لكن المصادر الموثوقة ربطت كل مرحلة بمناهجها التى تدرس بها.

فالمرحلة الأولى تدرس فيها قواعد اللغة .. بهدف تعلم القراءة والكتابة .. وكانت هناك وسائل كثيرة لتعلم اللغة تشابه ما يتم اليوم فى هذه السن المبكرة.. مثل ربط الكلمات بالغناء.. أو الصورة أو الصوت.. إلخ.

وكانت هذه المرحلة لأبناء الشعب جميعًا.. أما أبناء القصور.. فقد كان يشرف عليهم مربون أومعلمون أو مؤدِّبون.. وتبدأ من مجرد الحاضنة أو المرضع وتنتهى بالمربى الذى يقوم بالتثقيف والتعليم.. وكان المربى يتولى أميرًا صغيرًا واحدًا أو

أكثر ويشترط فيه سعة المعرفة والثقافة وحفظ الحكمة والاستشهاد بالأدب والشعـــر خاصة.

وحينما تبدأ مع الأطفال المرحلة الجماعية العامة (المدارس النظاميــة) فإننا أمــام مرحلة تعليمية . مُهِّد لها من قبل . وهى مرحلة القراءة والاستيعاب. وأغلب الظـــن أنها مرحلة طويلة تمتد سنوات.. تهدف إلى (حشد) التعاليم والنصائح والمعلومات وعلوم الدين والحياة التى تؤهل التلميذ إلى المراحل التالية.

<u>الأدب فى المرحلة الجماعية:</u>

يكاد ينقسم الأدب فى مصر القديمة . بصفة عامة . إلى قسمين:

1 . أدب نثرى تعليمى تهذيبى يتضمن الحكم والأمثال والمواعـظ وبعض القصص المستمدة من التراث.

2 . الشعر: وهو بدوره لونان:

(أ) شعر تعليمي تهذيبي ويتضمن الحكم والأمثال والمواعظ.

(ب) شعر خالص فى صور أناشيد يحفظها التلاميذ ويقومون بغنائها.

وقد كثرت فى مصر القديمة تلك التعاليم التربوية التى كتبت شعرًا أو نثـرًا، والتى يمكن أن نطلق عليها (الأدب التهذيبى) وقد تميزت من حيث الشكـل والمضمون بخاصيتين هما:

أولا: أن أغلبها موجه من والد إلى ولده (أو هى كتبت هكذا على لسان والد إلى

والده)، وهذه الخاصية تعطيها أهمية لدى الطفل الذى يحترم كل ما يوجهه إليه أبوه . ذلك الذى رباه.. وأصبح له قدرة على الحياة.

ثانيًا: أنها اعتمدت فى مجموعها على تقديم الحكمة وخبرة الحياة.

وهناك أمر جدير بالملاحظة على تلك النصوص.. فهى نصوص أودعها الكاتبون والحكماء خبرتهم الخاصة.. فأخذوا يعرِّفون أبناءهم من التلاميذ أمورًا كثيرة من الحياة والواقع والدين قد تبدو أكبر من سنهم.

الشعر التعليمي:

سوف نرى من خلال عرضنا لبعض النصوص أن قدرة التلاميذ الصغار على استيعابها قدرة محيرة حقًّا.. لكننا حينما نربط ذلك بواقع الحياة فى مصر القديمة.. تزول حيرتنا على الفور.. فالتاريخ يذكرعددًا من الملوك والحكام كانوا يتولون عرش مصر فى سن صغيرة(تحت العشرين) وبعضهم كان..يتولى مناصب الكهانة والتعليم فى هذه السن كذلك.. وكان الأب فى ذلك الزمان القديم ينظر إلى ولده على أنه ـ رجل صغير ـ أو قل إن طفولته طفولة كبيرة جادة.. وكان حرص الأب على تعليم ولده القراءة والكتابة والعلم أكثر من حرصه على الاشتغال بمهنة خاصة .. فالثقافة بكل ألوانها تمثل ما يهدف إليه الأب من تربية ولده ..

وهذه تعاليم خيتى بن دواوف لابنه بينى يقول فيها:

"يا ولدى عليك أن توجه (قلبك) إلى الكتب.. فلا شىء يعلو على الكتب، ليتنى

أستطيـــع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك..والتلميذ حينما يبدأ طريق النجاح فإن الناس تعلى من شأنه".

ثم يصل الحكيم إلى بيت القصيد . وهو تمجيد مهنة الكتابة فيقول:

"انظر فإنك لا تجد مهنة من غير رئيس إلا مهنة الكاتب..فهو رئيس نفسه وما من كاتب ينقصه الزاد الوفير.. وأن الآلهة لترعاه".

ألا نحس فى هذا النص الشعرى القديم أنه قد يفوق المستوى العقلى لتلميـذ فى سن التعليم، والذى نفترض أنه لا يتعدى السنين العشر.. إلا أنه نص يؤكـد أيضـا تلك النظرة الجادة للأطفال.. وحرص الآباء على أن يكون أبناؤهم مثلهم.. وأن يتفتحـوا ثقافة وعلمًا وخبرة وإيمانًا بالحكمـــة التى تقول:" التعليم فى الصغـــر كالنقش على الحجر".

ومن أبرز التعاليم فى هذه المرحلة كذلك تلك المجموعة التى ترويها البرديات القديمة:

1 . تعاليم بتاح حوتب لابنه الصغير:

وتعتبر من أقدم التعاليم فى الأدب الفرعونى(2670 ق.م تقريبا)وتتضمن مجموعة كبيرة من الحكم والأمثـــال والنصائـح.. وهى تعاليـم كتبت بالشعـر. أو على أقل تقدير . كتبت بأسلوب أقرب للشعر..تتوالى فيها الصور أمام أعيننا.. وتميط اللثام عن أهداف سامية وصور حية رائعة للحياة المنزلية والاجتماعيـة.. فنقرأ فيهـا أدب الحديث..والغنى والفقر.. والتواضع والجد فى العمل . وحتى الزوجة فى معاملتهـا

برفق . والصراحة والعطف والكرامــة والبعد عن الأذى.. والصمت والقناعـة.والطاعة وحب الناس.. إلخ.. ومن هذه التعاليم تلك النصوص:

. إذا وجدت رجلاً يتكلم.. وكان أكبر منك وأشد حكمة.. فاصغ إليه.. واحنِ ظهرك أمامه (كناية عن الطاعة والاحترام).

. إذا كنت فى صحبة جماعـة من الناس.. وكنت عليهم رئيسًا ولشئونهـم متوليا.. فعاملهم معاملة حسنة حتى لا تلام.. وليكن مسلكك معهم لا يشوبه نقص..

. لا تنشر الرعب بين الناس فهذا أمر يعاقب عليه الرب..

. عندما تجلس إلى المائدة فلا تنظر إلى ما وضع أمام غيرك. بل انظـر إلـى ما وضع أمامك أنت..!

. كن صريحًا ولا تخف من أعمالك شيئًا..

. كن بعيدًا عن الشر والعمل السيىء لكى تكون أعمالك مستطابـة حسنة.. وتجنب الشراهة فهى رذيلة مهلكة..

. كن سمح الوجه وضاء الجبين مشرق الطلعة.. ما دمت حيًّا.

. ما أجمل طاعة الابن! إنه عبقرى فى سمعه.. عبقرى فى كلامه..ذلك الذى يطيع كل ما هو نبيل.. إنه أحد أبناء (حورس).

. حقًّا..إن الابن النجيب هبة من الإله.. إنه يعمل أكثر مما يؤمر به. ويفعـل الخير ويضع قلبه فى كل أعماله..

لقد جاء فى مقدمة هذه التعاليم أن الحكيم (بتاح حوتب)دخل على ملك مصر العليا والسفلى (إسكيسى)ثم قال له:" مرنى يا مولاى أن أجعل من ابنى خليفة لى..يحتل مكانى.. فأعلمه عظات من يسمعون.. وآراء من سبقوا..!"

فأجاب الملك:

"علمه العظة أولا.. حتى يكون قدوة لأولاد العظماء.. ويتحلى بالطاعة.. ويدرك كل رأى صائب ممن يتحدث إليه.. فليس هناك ولد أوتى الفهم من تلقاء نفسه".

وتبين لنا هذه المقدمة كيف كان اهتمام الحاكم كذلك بتربية الجيل الجديد.. وحرصه على أن يكون أبناء الشعب أمثلة للعظمة والطاعة والسلوك الحسن.

2 . نصائح آنى:

وهذا الكتاب الذى يعود إلى عصر الأسـرة الثانيــة والعشريـــن، من عيون الأدب والحكمة وقد عثر عليه فوق لوح تلميذ صغير.. وتقول مقدمة الكتاب:

هذه فاتحة تعاليم النصح التى ألفها الكاتب آنى الذى ينتسب إلى بيت نفر . رع . نز).وفى هذه التعاليم يقول آنى لابنه فى أسلوب بسيط شائق:

"يا بنى.. أحدثك بما هو حسن لكى يعيه قلبك..

. لا تكثر من الكلام.فالصمت خير لك..لا تكن ثرثارًا بلا فائدة..وكن قبل كل شيء حريصًا فى كلامك.

. إن هلاك المرء فى لسانه..

. اعرف قيمة ربك.. واحترم اسمه وتعاليمه.. وقدم له قربانك..

. قدِّم الماء لأبيك وأمك.. اللذين انتقلا إلى قبرهما فى الصحراء..وإياك أن تغفل هذا الواجب.. لكى يعمل لك ابنك المِثْل..

. ادرس الأدب.. وضعه فى قلبك.. فيطيب كل ما تقول..

. كن مجتهدًا.. لأن الرجل الذى يظل عاطلاً خاملاً لا يكون شيئًا."

ونظرة أولى إلى هذه النصائح والتعاليم يتبين لنا بعض الأمور الهامة:

(أ) لقد وجد كثير من تلك النصائح فى ألواح تلاميذ صغار..مما يدل . بالقطع . على أنها كانت بين مناهج التدريس العامة.

(ب) أنها كتبت فى وضوح وسلاسة.. وشاعرية كذلك (وليتنا نعرف اللغة الأصلية إذن لأحسسنا بفنية هذه الكتابات).

(جـ) أنها تضمنت نصائح نجد صداها فى العقائد السماوية وغير السماوية.. وفى القوانين والعرف والعادات التى التزمتها الشعوب فيما بعد.. مما يدل على قدرة الكاتبين . فى ذلك الزمان . وصدقهم ومهارتهم فى الإقناع والتنبؤ واكتشاف المجهول فى النفس الإنسانية.

(د) أنها تدعو إلى الخير والسلوك السوى والصمت عن الكلام الذى لا يجدى، وأن اللسان هو موطن الخطر والهلاك. (وكل هذه الأقوال لها صداها المعاصر فى الأمثال والعظات الدينية والاجتماعية مثل: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وأيضًا فى الأمثال الشعبية . لسانك حصانك . وهكذا).

(هـ) أنها تدعو إلى الإخلاص فى عبادة الإله واحترام شريعته وضرورة التقرب

إليه..

(و) أنها تدعو إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما، تمامًا كما يدعـو القرآن الكريم (وبالوالدين إحسانا).

(ز) أنها تدعو إلى قراءة الأدب بألوانه المختلفة.. وعبارة (ضعه فى قلبك) عبـارة متوهجة تكمن فيها كل الفائدة.. فالقلب موطن الشعور والعاطفـة.. وكلمـا تغـذى الصغير بما ينمى شعوره وعاطفته شب على القيم والحب والكمـال. ولهـذا وجدنا بعدها عبارة (يطيب كل ما تقول).. أى أنه لن ينطق إلا بكل شيء طيب حسن.

(حـ) أنها تدعو إلى العمل والاجتهاد..لا إلى العجز والكسل.. فمن كان عاطلاً فهو نكرة فى المجتمع.. وليس له قيمة فى الوجود.

فإذا ما توغلنا أكثر إلى جوهـر هذه النصائح وبنائها الفنى.. نجدها وقد اتخـذت صفتين أساسيتين في عرض الأفكار:

<u>الأولى . الإقناع:</u>

فمن المألوف أن الشعر . خاصة أسلوب الحكم والتهذيب . حينما يوجه إلى الناشئة فإنه ينبغى أن يلتزم مبدأ الإقناع.. وقد أخذت التعاليم المصرية سبيلهـا إلى الإقناع عن طرق شتى منها: التعقب المنطقى . والاستشهاد بالمثل والحكمة . واستخـلاص العبرة من أحداث ماثلة.. أو وقعت فى الماضى . ومحاولة ربط النتيجـة بالسبب . والاستعانة بالوازع الدينى.

الثانية . التوسع والاعتدال:

ومثل هذه الخاصية فى التوجيه السليم ومراعـاة التوسط فى المناسبات المختلفـــة وفى معاملة الناشئة مع غيرهـم ممن فى مستواهـم..أو مع من يكبرهـم فى السن.. وبهـذا يتجنب الطفل طرفى الإفراط والتفريط.. ويتخـذ طريـــق الحكمة والتعقل منذ الصغر.

وهذا التوازن الذى تدعو إليه هذه التعاليم تجعلنا نتعجب حقًّا.. إذ أن الأطفال كانوا يلتزمون هذا المنهج.. وكثيرًا ما كانــوا يقومون بأعمال ومسئوليـات فى الواقع أكبر من سنهم.. مما يدل على أن الطفل يمكن أن يعبأ بأفكار ومضامين.. تعيش معـه .. وتجعله . ليس الطفل المدلل . ولكن . الطفل الكبير . أو الرجل الصغير .!

الشعر الخالص:

إننا هنا أمام الشــق الآخر من الأشعار، بعـد أن تناولنـــا آنفًا الشق الأول الشعر التعليمى أو التهذيبى . وما نقصده هو الشعر الخالص..أو ما يمكـن أن نطلق عليه الشعر الدنيوي أو الاجتماعي أو البعيد عن المباشرة والتقريرية.

وقد زادت أهمية الشعر الذى يقـدم للتلاميذ رغبـــة فى التعـرف على جوانب الحياة بنظرة فنية: فحياة الفراعنة وانتصاراتهم وأعمالهم الفنيــة وما اتصل بها مــن رمـوز وتيجان ومدن وقصور كل هذا أفسح مجالا خصبًا للشعر.

لقد وُجدت أشعار تمجد الآلهة..وأشعار تمدح الحكام..أو بعض الطوائف التى تخدم الآلهة.. وأشعارتسجل الأحداث وتشيد بالانتصــارات.. وأشعـــار تمجـد الماضى

والحاضر. وأشعار فى الحب العفيف.. إلى آخر هذه الأغراض التى تعرف فى فن الشعر.. ومن أشهر القصائد التى وجدت على مــدى التاريــخ الفرعـوني(نشيد النيل) وفيه يقول مؤلفه المجهول:

حمدًا للنيل..

ينزل من السماء

ويسقى البرارى البعيدة عن الماء..

وينتج الشعير.. وينبت الحنطة

وهو سيد الأسماك..

وهو الذى يحدد للمعابد أعيادها

فإذا تكاسل انسدت الأنوف وافتقر الناس وهلكت الملايين..

وإذا بخل.. ذعرت الأرض وبكى الكبير والصغير..

وإذا ارتفع مرة أخرى وأشرق..

تصبح الأرض فى حبور.. والناس فى سرور

وسرعان ما تبتسم الوجوه.. وتستريح القلوب..

ويكاد هذا النشيد تتردد معانيه نفسها فى كل الكتابات الشعرية التى كتبت عن النيل فى العصر الحديث..فإذا ما قرأنا نشيد النيل للشاعر أحمد شوقى. وقد كتبـه أيضًا للناشئة. لا نكاد نجد اختلافًا.. يقول شوقى:

النيل العذب هو الكوثر والجنة شاطئه الأخضر

ريان الصفحة والمنظر ما أبهى الخلد وما أنضر

(إلى آخر النشيد)

كما وجدت إلى جانب القصائـد والأناشيد التى تتناول النيل .. قصائد وأغانٍ أخرى تتناول الانتصارات المتتالية.. بما يمكن أن نطلق عليــه بتعبير العصر (الأغانى والأناشيد الوطنية).. والغريب فى هذه القصائد أنها أيضًا لا تختلف كثيرًا من حيث الإحساس والتجربة الوطنية فى أى عصر من العصور .. ومن هذه الألـوان تلك الأغنية التى تشيد بالنصر والتى كتبت فى عهد الملك (منفتاح).. وفيها:

هذا الذى يفتح أبواب الأسوار (أى الحاكم).

والذى يدع معابده تستقبل قرابينها

وهو الذى يقوِّى قلوب الألوف من البشر

ويقوِّض بها أركان العدو

إنه يصد الأعداء بشجاعة وهم يطئون أرض مصر

وحينما يعود الجيش منتصرًا من أرض المعركة نجد أنشـودة أخرى تشيـد بهذه العودة . وهى تعود إلى عهد الدولة القديمة . وفيها يقول الشاعر:

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا

فقد مزَّق بلاد سكان الرمال

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا

فقد دمَّر حصون الأعداء

هذا الجيش عاد إلى وطنه موفقًا

فقد أحضر جنودًا كثيرة أسرى..

ومن يقرأ هذه القصائدالوطنية يلاحظ أن ظاهرة التكرارهنا قُصد بها تمجيـد الجيش، كما قصد بها كذلك تيسير حفظ الأنشودة وترديدها.. لتكون نشيدًا عامًا لا صعوبـة فيه، والمعروف . فى غياب وسائل الإعلام الحديثة . أن المدرسة هى العرين الأول لترديد مثل هذه القصائد باعتبارها جزءًا من مناهج التربية الوطنية..

ولم يكن النيل وحـده أو الجيش أو النصر موضوعًا للشعـر الخالص الذى يردده التلاميذ ويغنونه.. وإنما وجدت قصائد أخرى وأناشيد،من أشهرها تلك القصائد التى تغنى بها التلاميذ فى فضل المربى (المعلم) ومن القصـائد .. ما كتبه تلميذ إلى معلمه يقول:

لسوف تهبط إلى سفينتك

عامرة من المقدمة إلى المؤخرة

وتبلغ قصرك البديع

الذى أقمته بنفسك لنفسك..

وتستمر القصيدة هكذا تمجد المربى (المعلم) وتشيد بفضلـه فى التعليم والتثقيف.. ويلفت النظر هنا أن كاتب القصيـدة كان أحد التلاميذ.. مما يوضـح لنا أن الشعـر كذلك . مثله مثل مواد الدراسة الأخرى . كان يُدرس للتلاميـذ.. وكـــان التلاميـذ

يكتبونه . أو هم يحاولونه . وكان المعلم سعيدًا بذلك.. سعادة التلميـذ الذى يكتب قصيدته فى مدح معلمه.

وهذا أمر يقف بنا أمام حقيقة مهمة.. هى أن الإبداع . والفن عامة بالضرورة . ليس مقصورًا على الكبار . أو الحكماء . فقد كان يمارسه التلاميذ صغار السن كذلك ما داموا يمتلكون الموهبة والقواعد الفنية للشعر..

خلاصة:

كانت رحلتنا السريعة تتركز حول الأدب . وخاصة الشعر . الذى كان ضمن المواد التى تدرس في المرحلة التعليمية الأولية فى المدارس النظامية.. وتلك المرحلة هى التى تعنينا فى دراستنا ونحننطوف مع الطفل الذى يتلقى فى هذه السنوات الأولى.. ما يساعده على النمو العقلى..والنضج الوجدانى ولهذا لم نتعرض للمراحل التاليـة باعتبارها تخرج عن نطاق .. الدراسة إلى التطبيـق.. وباعتبـار الدارسين فيها قـد تجاوزوا عمر الطفولة المفترض.

وخلاصة ما نود أن نخرج به..أن التربية المصرية القديمة قد سلكت مسلكا وسطًا يستهدف غايات مخلصة فى التعليم والتثقـيف .. حيث تضمنت قواعـد الســـلوك والأخلاق وسبل العبادة الحقة والحياةالسليمة.. وكان أوضح أهداف التربيـة فى ذلك العصر القديم حتى أحدث الدول فيه . أن تكفل للناشىء عقلاً ناضجًا.. وفكرًاواعيًا متفتحًا.. لمواجهة الحياة والمشاكل اليومية.وكان الشعر يمثل جانبًا هامًّا من جوانب

الأدب طوال عصورالفراعنة المختلفة.. وكان ذا شقين: شعر يدخل ضمـن الأدب.. التهذيبي أو الديني..وهو صياغة سلسة للحكم والأمثال والنصائح..لكبار الحكمـاء. وأحيانًا كتبه الآباء . وشعر خالص يأخذ بيد الطفل إلى عالمـه الواقعي والوجـداني معًا.. فيتناول كل شيء من حوله فى أغـراض شتى دينيـة واجتماعيـة ووصفيـة وغزلية ووطنية.. وغيرها. ووجدت محاولات قادرة لكتابة الشعر على يد الأطفال أنفسهم.. فكانوا يكتبونه بخط واضح كبير.. ويُفسحون له في ..ألواحهـم وبردياتهـم الصغيرة.. وكانوا ينظرون إلى معلمهم نظرة..احترام وتقدير وينشئون أشعارًا فيهم. والملف للنظر أنها كانت..أشعارًا نلمس فيها سحـر البيان والحكمـة كـذلك، وكان شعارالأطفال الذين يكتبون الشعر هو لا تَقُلْ أجدْتَ الكتابة ما دمت .. لست كذلك ..."لا تقل إنى متعلم، واستمر فى تحصيل المعرفة".ولا شـك أن مبـدأ كهـذا يضـع الطفل أمام مسئولية كبيرة فى هذه السن المبكرة.. ومجتمع هذا شأنه مع أطفالـه.. يعطينا إجابات..شافية عن أسباب القوة والعبقرية التى سادت عصـور الفراعنة.. فما من شك أن هؤلاء الأطفال هم الذين . بعد سنوات قليلة أصبحوا حكامًا وحكماء وقوادًا وكتبةً وكهانًا.. وأضافوا الكثير إلىالحضارة لتكون من أكبر حضارات العالم القديمة فنًّا وأدبًا وقدرة على الإبداع..

شعر الأطفال في التراث العربي

مفهوم واحد .. أو .. كثرة:

وصولاً إلى التعرف على نظرة العرب لأبنائهم الصغار. رأينا أن نعود إلى معاجم العربية لكي تقودنا إلى مفهوم (الطفل) الذي يمثل محور هذه الدراسة.

وهناك في هذه المعاجم أكثر من مادة. قد تجتمع وقد تختلف. تأخذ بأيدينا إلى هذا الهدف..

ففي لسان العرب .. نستطيع أن نلتقط هذه المفردات:

* الحدث: هو الشاب فتّى السن.

* الصبي: من لَدُنْ يولد إلى أن يُفطم .. أو هو الغلام.

* الصِّبا: الصغر في السن.

* ويقول أبو الهيثم: الصبي يدعى طفلاً حين يسقُط من بطن أمه إلى أن يحتلم.

* الناشئ: هو فويق المحتلم، أو هو الحدث اللذي جاوز حدَّ الصغر، ومن بلغ الحلم فجرى عليه حكم الرجال..

هذا ما قالته المعاجم اللغوية .. فماذا عند علماء النفس.

تكاد تجمع كثير من المراجع الموثوقة أن الحدث هو الطفل الذي لم يصل إلى سن البلوغ الجسمي والعقلي والانفعالي بمعنى أنه لا يزال في دور التذبذب والتغيير ولم يصل بعد إلى حالة الثبات أو(النضج).وتنتهي هذه المرحلة في سن 16 أو18 سن .ولو أخذنا بالتوفيق بين معاجم اللغة وآراء علم النفس لن نجد اختلافًا كبيرًا، فحيث

تقول المعاجم إن الناشئ (فويق المحتلم).. فقد يصل مدى هذا (الفويق) إلى سن 16سنة، وتكون تلك المفاهيم على كثرتها تقترب على معنى أحدأو تُحدد في سنوات ، واحدة تنتهي عند هذه السن..سواء كان طفلاً أم حدثًا أم صبيًّا أم غلامًا أم ناشئًا.

لكن الأمر الذي يحق لنا أن نسلِّط عليه الضوء.. هو نظرة العرب إلى هذا الطفل.. لقد..رأينا كيف نظر القدماء . في مصر القديمة على وجه الخصوص . إلى الطفل على أنه رجل صغيرلهذا وجدنا تلك الآداب التي كانت تقـدم له تحتـرم فيه عقله.. ومستوى نضجه بل تأخذ به من تلك المرحلـــة الصغيرة إلى مرحلـة قد ينظر إليها المحدثون على أنها أكبر من سنه ومن مستوى تفكيره.وتظـــل هذه النظرة قائمـــة وخالدة . خلود تلك الحضارة القديمـة . إلى أزمـان تالية.. ترى مـــاذا كانت نظـــرة العرب..هى أمتداد لتلك النظرة القديمة أم أنها أنقلبت فعاملت الطفل على أنه كائن مهمل لا يستحـــق هذا التقدير.إن خير ما يدلنا على هـــذه النظـرة . خاصـةً في العصرالجاهلي . ما وصل إلينا على أيدي أدباء وشعراء تلك الفترة القديمة.. ونبـدأ بأشهرقصيدة في الفخر تلك المعلقة التي قالهـا عمرو بن كلثـوم مباهيًا مفاخـرًا، ومزدريًا محتقرًا عمرو بن هند لأنه أهان أمه..فبعد أن صـال وجـال بصور الفخر بقبيلته . بني تغلب . قال:

ألا أبلـغ بني الطمَّـاح عنا ودُعميًّا.. فكيف وجدتمونا
إذا ما الملْك سام الناس خسفًا أبينا أن نُقـرَّ الذلَّ فينـا
ملأنـا البرَّ حتى ضـاق عنا وماءَ البحر نملؤه سفينـا

إذا بلـغ الفطــامَ لنـا صبيٌّ تخرُّ له الجبابُر ساجدينـا

صحيح كان هذا في مجال الفخر وربما وجدنا فيه بعض المبالغة.لكن ما يهمنا فيـه هي نظرة العرب إلى أبنائهم منذ وجدوا وفتحوا أعينهم على الحياة.. إن الشاعر هنا يؤكد أن الصغير لا يفترق عن الكبير من حيث كونه عضوًا من أعضــاء القبيلة له حقوقه تمامًا مثل الكبير . يُسجد له كما يُسجد للكبير . ويُحترم ويقدَّر مثلـه تمامًـا..

والمعروف أن الشاعر هذا نفسه ساد قبيلته وهو في الخامسة عشرة.المهم في الأمر هنا أنه ليس كَمًّا مُهملاً ينتظر الأعتراف به حينما يبلغ سنًّا معينة..لكنه منذ يُفطـم عن ثدي أمه (فصالُه في عامين) يصبح شيئًا مذكورًا..

مثلٌ آخر تورده كتب التاريخ الأدبي في ذلك العصر على لســان (بشامة بن حزن النهشلي) حيث يقول:

إنا . بني نهشل . لا نَدَّعِى لأب عنه ولا هو بالأبناء يَشرينا
إن تُبْتَدَرْ غايةٌ يوما لمكرمـةٍ تلقَ السوابقَ منا والمصلينا
وليس يهلِك منـا سيدٌ أبـدًا إلا افْتَلَيْنَا غُلامًـا سيِّدًا فينا

إلى هذا الحد يمكن للقبيلة أن تختار غلامًا . صغيرًا . لا رجلاً محنكًا خبيرًا ليكون سيد القبيلة.. أيكون بعد هذا شك في أن نظرة العرب إلى أبنائهم نظرة رجل لرجل.. أو هم بالأحرى . يربونهم على هذا المسلك القويم . على أدنى التصـورات . وهذا

حاتم الطائي المشهور بالكرم والجود يأمر غلامه . وهو العبد المطيع . أن يوقد النار على يفاع من الأرض في الليلة الباردة.. الشديدة..فإن جلبت النار ضيفًا فهو حر..

أوقد فإن الليل ليل قرّ والريحُ يا غلام ريحُ صَرّ
علّ يرى نارك من يمرّ إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنت حرّ

ولا بد أن يكون مثل هذا الحوار الصادق بين طرفين يفهمان جوهر المعنى.. ولولا هذا ما وصل المعنى الذي يقصده حاتم إلى غلامه العبد..ويسعى الغلام إلى عمله طمعًا في الحرية.

فإذا ما عبرنا الجسر إلى عصـــور الإسلام المختلفة تتأكد هذه النظــرة مع ارتفاع المستوى الثقافي والعقائدي.. ونبذ كثير من عادات الجاهلية. وفي هذا الصدد يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يرقِّصُ الحسن . أو الحسين . ويقول:

حُـزُقَّةٌ حُـزُقَّةْ تَـرَقَّ عينَ بَقَّـةْ

ويشرح المعجم لفظة حُزُقَّة بأنه الضعيف الذي يقارب خطوُه من ضعف.. وترق: بمعنى: اصعد . أما عين بقة: فكنايةٌ عن صغر العين..

وما يهمنا من هذا الموقف أن الإسلام . وعلى رأس دعوته محمد عليه السلام . يهتم بالطفل وإن كان ضعيفًا صغيرًا . ويدعـــوه إلى أن يرقي ويصعـد ويصبـح شيئًا مذكورًا، كما تشير معاجم أخرى إلى أن (الحزُقة) يقصد به الرجلُ الصغير.. ويُكني به الطفل..وهذا موقف يندر أن يوجد يحكيـه الشاعر الحُطيئة في حوارية بينه وبين

ولده الصغير، من قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرحل ببيداء لم يعرفْ بها ساكن رسما

إن الحطيئة وأولاده لم يذوقوا طعامًا منذ ثلاث ليال.. وقد عصب بطنَه من الجوع .. وحينما رأى شبحًا ضعيفًا من بعيد كثر همه وحزنه:

رأى شبحًا وسط الظلام فراعَهُ فلما رأى ضيفًا تشمَّر واهتمَّا
وقال: هيا ريَّاه ضيفٌ ولا قِرى بحقك لا تحرمْه تا الليلة اللَّحما

ثم يأتي موقف ابنه على هذا النحو:

وقال ابنه لما رآه بحيرةٍ أيا أبتِ اذْبحْني ويسِّرْ له طُعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي ترى يظنُّ لنا مالا فيوسعنا ذَمَّا

ويهم الحطيئة بذبح ولده . كما حدث في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . لولا أن رأى قطيعًا من الأتن الوحشية عن بعد.. كأنما أرسلتها العناية الإلهية فداء للصبي الصغير.

لقد دخل الأولاد هكذا قضايا الكبار.. وأصبحوا طرفًا فيها..بل عليهم أن يفكروا فيها ويقدموا لها حلولا.

ولا شك أن مجتمعًا يُنظر فيه إلى الأطفال تلك النظرة.. لهو مجتمع مكتمل القيم.. إنه مجتمع حَدَا بأحد الشعراء . حطَّان بن المُعَلَّى . أن يُجَسِّد حبه لأولاده..وأن يقدر وجودهم في حياة الكبار في قصيدة تخلُد على مدى الأيام:

أنزلني الدهر على حُكْمِه من شامخ عالٍ إلى خَفْضِ

وغالني الدهرُ بوفـر الغنِـى فليس لي مـالٌ سوى عِـرضـي
أبكانيَ الدهرُ ويـاربمـــا أضحكني الدهرُ بما يُـرضي
لولا بُنياتٌ كزُغـب القَطَـا رددن مـن بعض إلـى بعـضِ
لكان لي مضطـربٌ واسـع في الأرض ذاتِ الطولِ والعَرضِ
وإنمـــــا أولادُنـا بيننـا أكبادُنـا تمشي علـى الأرضِ
لو مرت الريـحُ على بعضهم لا متنعت عيني عـن الغمـضِ

ومن المآثر القديمة.. قيل لأعرابي: صف أبنك.. قال: وُلد الناس أبناء.. وولدتـه أبًا يحُسن ما أُحسن.. ولا أُحسن ما يحُسن.

والأمثلة كثيرة لا تقع تحت حصر في نظرة العرب إلى أبنائهم على أنهم مشاركون في صنع الحياة بل هم عناصر إنتاجيـــة في المجتمع .. يعملون ويحاربـون.. ويصاحبون القوافل.. وغير ذلك من الأعمال التي يقوم بها الكبار.

القراءة والكتابة لدى العرب:

عن البلاذري في فتوح البلدان:

* دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب: عمر بن الخطاب . وعلـ ى بن أبى طالب . وعثمان بن عفان.. إلخ.

وجاء في فتوح البلدان كذلك:

* وكان بعض اليهود قد عُلِّم كتابَ العربية وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن

الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدةٌ يكتبون. ومن المعـروف أن النبي

صلى الله عليه وسلم أفتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة. أما الإناث فقد كان منهن كاتبات كذلك قبل الإسلام، منهن الشفاء بنت عبد الله العدوية، وحينما جاء الإسلام تعلمت القراءة والكتابة كل من حفصة زوج النبي . وأم كلثوم بنت عقبة.. وعائشة بنت سعد وغيرهن. .(البلاذري).

وما نقصده من هذه الحقائق أن العصر الجاهلي كان يعتمد على الرواية والحافظة والذاكرة.. فلم يكن لديهم نظام للتعليم أو دور يتلقى فيها الصبيان العلم. وكانت الصحراء مرتعًا خصبًا لتعلم الصبيان فنون الشعر والحرب والعمل جميعًا.

لكننا نستطيع . مع هذا . أن نلتقط ملمحا مهمًّا في ذلك العصر.. ذلك أن الشعر . ديوان العرب وسجل حياتهم . لم يكن يبتعد عن ذهن الصبيان.. وربما فرَّق الناس في هذا العصر بين فنين شعريين. فن ترقيص الأطفال الصغار . الذين لا يدركون للغة معنى، لكنهم يحسون النغم والموسيقى . وما نحا نحو. وفن الشعر سواء قاله وسمعه الصغار أو الكبار، في سن مبكرة أو سن كبيرة.

(1) شعر ترقيص الأطفال:

ينتمي هذا اللون من الشعر إلى (الشعر الشعبي العربي)[7]..ويطلق عليه كذلك أغاني المهْد.. أوأغاني الطفولة.. وهذا اللون موجود لدى كثيـــر من الشعــوب قديمهــا وحديثها.. يتغير ويتطور معظروفها الاجتماعية وتغير الظواهر اللغوية..وقد اشتهـر هذا اللون عند العرب باسم ترقيص الصبيان.. ويبدو من النماذج التي سوف تـرد هنا أن..العربي حينما كان يرقِّص أبناءَه . أو بناتِه . إنما يضع في كلماتــه المنغمة ما يتمنـاه لهم . أو لهن من التمسك بالقيم والفضائل ومن الغد الأفضل.ولا نكاد نجد اختلافًا كبيرًا بين هذه المعاني القديمــة..والمعاني العصرية اللهم إلافروق اللغــة والعصر.

أمـــا الذكور فكان العربي حريصًا على ترقيصهم على بحر الرجـز المطيع لهـذا الغرض.. ومن هذه الأمثلة ما رُوى عن أعرابي قوله:

يا حبذا روحُه وملمسُـهُ

أصلحُ شيء ظلُّه وأكيسُهُ

الله يرعاهُ لي ويحرسُـهُ

وهى كما نرى ترقيصة فخر ودعاء معًا لولده الصغير.. على حين نجد آخر يعبـر

---

[7]- قد يصعب العثور على نصوص الشعر الشعبى لدى العرب لعدم اهتمام المؤرخين به .. لكن د. حسين نصار استطاع أن يلم بملامحه العامة فى كتابه (الشعر الشعبى العربى) المكتبة الثقافية/ 60 (أول مايو 1962)- وضمنه فنون الرجز – وأغانى الأفراح – وأغانى الطفولة – وأغانى الآبار – وأغانى البناء – والحداء – وأناشيد الحروب – والنواح – وأدعية المتسولين .. مما كان يكتب بالفصحى قبل انتشار العامية والزجل وفنونه .. والجدير بالذكر أن هناك خطأ شائعا الأن يقول بأن الأدب الشعبي – وخاصة الشعر – هو ما يكتب بالعامية .. مع أن أدب العامة – هذا إقليمى ولا علاقة له بمصطلح الأدب الشعبى!.

عن حبه الشديد لولده في قوله:

أحبُّه حبَّ الشحيحِ مالَـهُ

قد كان ذاقَ الفقر ثم نالَهُ

إذا أراد بذلَـه بدَا لــهُ

ولأن الأم العربية هى التي تقوم بتربية الطفل صغيرًا..فقد كان لها الفضل في تنشئة الأولاد على المثل العليا في الشجاعة والإقدام والكرم وكسب الشرف وغير ذلك من الصفات الحميدة.. ولهذا ينشأ الولد نشأة الرجولة والعزة.

هذه أم الفضل بنت الحــارث ترقّص ولدها عبد الله بن العباس فتدعو على نفسها بالموت إن لم يكن مقدرًا لابنها أن يكون سيد قومه:

ثكِلتُ نفسي .. وثكلتُ بِكـري إن لم يَسُدْ فِهرًا وغيَر فهـرِ

بالحسَبِ الوافي .. وبذلِ الوفْر حتى يُوَاري في ضريحِ القبر

وهذه هندُ بنتُ عتبة زوجُ أبي سفيان ترقِّص ولدها معاوية وكأنهاَ ترضعـه تنبؤاتها في المستقبل:

إنّ بُنَيَّ مُعْـرِق كريــم محبـبٌ في أهلـه حليـم

ليس بفحَّــاش ولا لئيـم ولا بطخـرورٍ ولا شئـوم

صخر بني فهـرٍ به زعيم لا يُخلف الظنَّ ولا يخيـم[8]

وكانت (منفوسة) بنت زيد الخيل ترقِّص ولدها حكيم من دريد بن الصِّمَّة.. فتدعوه

[8]- الطخرور: الضعيف غير الجلد – يخيم: يجبن – وصخر بنى فهر: هو صخر بن حرب أبو سفيان والد معاوية.

إلى التشبه بأبيه أو أخيها في الفروسي والبطولـة .. بل كانت ترى أن أبـاها (زيد الخيل) أكبر من أن يدرك قدرَهُ ابنُها.. وفي هذا تقول:

أشْبِه أخي أو أشبِهَن أباكاَ

أما أبي فلن تنالَ .. ذاكا

تقصرُ عن منالِه.. يداكا

وقد تعمد المرأة إلى المداعبة.. ويصير موقف المراقصة مبتكـــرًا تلقائيًّـا .. كهـذا الموقف الذي يحكي عن جارية الزبير ابن عبد المطلب حينما رقّص جماعــةً من أولاده .. فدخلت عليه الجارية تقول: مدحـت ولدَك وبني أخيك.. ولم تمـدح ابني "مغيثا".. فقال الزبير: علىّ به عجليه، فجاءت به.. فأنشده مراقصا:

وإن ظني بمغيـث إن كبـر

أن يسرق الحج إذا الحــج كثُر

ويوقر الأعيارَ من قِرْفِ الشجر[9]

ويأمـر العبدَ بليـل يعتـــذر

ميراث شيخ عاش دهرًاً غيَر حر

ومن ترقيص الزبير بن عبد المطلب كذلك .. تلك الأبيـات التي رقص بها أخــاه العباس ووصفه فيها بالعفة والكرم والوفاء والشرف:

إن أخي عبـاس عفٌ ذو كرمْ

[9]- الأعيار: الخطوط البارزة فى وسط ورقة الشجرة – قرف الشجرة: قشرها.

فيه عن العوراء إن قيلت صَمَمْ

يرتاح للمجـد ويوفي بالذِّمَمْ

وينحر الكوماء في اليوم الشَّيَمْ[10]

أكرم بأعراقِك من خال وعـمْ

أما ترقيص البنات.. فقد أنتشــر كذلك في البيئة العربية.. حيث كان العربي يتمنى لابنته ما يتمناه للحسان حينما يكبرن.. ومن هذا ما قاله عربي يرقص ابنته:

كريمــةً يحبهـــــا أبوهـا

مليحـةَ العينين عذبًا فوهـا

لا تحسن السبَّ وإن سبُّوهـا

وكأنه يمهد لها عند من لا يعرفها بصفات تؤهلها لحياة طيبة مع زوجها فهى حسنا ء طيبة الريح عذبة الفم كريمة النفس والخلُق.. تُرضي زوجها من قبل ومن بعد..

وقال الزبير بن عبد المطلب وهو يرقص ابنته أم الحكم فيشبهها بالظبي:

يا حبــذا أم الحكـمْ

كأنهـا ريم أحــمْ

يا بعلها ماذا يشــمْ

ساهم فيهــا فسَهَمْ

وهذه أم تتكئ على ترقيصة عذبة لابنتها الصغيرة لتقول من خلالها شيئًا لزوجها..

[10]- الكوماء: الناقة لأن لها سناما .. اليوم الشيم : المقصود به اليوم الذى لا خير فيه.

فقد روى أن أعرابيًّا يُدعى أبا حمزة الضبِّي كان قد هجر امرأته .. لأنهـا لا تلد الذكور فكان يقيل ويبيت عند بعض الجيـران .. ومر يومًا بخباء امرأته فوجدها ترقِّص ابنتها بهذه الكلمات التي رققت قلبه.. فولج البيت بعـدها وقبَّل رأس امرآته وابنته وعاد إلى بيته:

ما لأبي حمـــزةَ لا يأتينـــا
يظلُّ في البيـت الذي يلينـــا
غضبـانَ أن لا نَلِـــدَ البنينا
تا الله .. ما ذلك فـي أيـدينـا
وإنمـا نأخـــذ ما أُعطينا
ونحـــن كالأرض لـزراعينا
نُنبتُ مـا قـــد زرعوه فينا

وقد سادت البيئـة العربية . جاهلية وإسلامًا . نمـــــاذج متفرقة من هذه الأشعار أو الأراجيز أو الأغاني التي يرقِّص بها الآباء والأمهات الصغـار. وقد مر بنا كيــف كان النبى صلى الله عليه وسلم – نفسه – يرقص الحسن والحسين بكلمات قليلة وهو سعيد باللعب معهمـا بل إن النبي نفسه قـد رقَّصته أختُـه (شيماء) في باديـة بني سعد بهذه الأبيات:

يا ربنا أبـــقِ لنا محمـــدا
حتى أراه يافِعًـــا وأمـــــردا

ثـم أراه سيـــــدًا مسـوَّدا

واكبِتْ أعاديـه معًـا والحسدا

وأعطــه عِـــــزا يـدوم أبـداَ

ومثل هذه النماذج على ما يبدو من كثرتها . لا تمثل تيارًا في الشعر العربي.. على الرغم من أهميتها في تربية الصغير .. ربما لأن مؤرخي الأدب قد شغلهـم تدوين الشعر العربي الرصين عن أن يدوِّنُوا هذا اللون الذي يُعد بحق سبقًا في آداب العالم .وهذا الإهمال في التدوين كاد يطفئ ملامـح صورة الشعر الذي يقدم للصغيـر..

ويستمتع به ويصمت عن بكائه إذا أنصت وأصغى إليه.. ذلك أن الحس الجمالي.. أوالتذوق الفني لدى أولاد العرب الصغار قد أنشأهـــم على حـــب التأمل.. وعلى محاولـة تقليد الكبار في قرض الشعر في أحيان كثيرة أهملها أيضًا المؤرخون . مما سوف نعرض له فيما بعد..

ولو أننا أمعنا النظر في مثل هذه المقطوعات لوجدناها . مع سهولة إيقاعها . تلتزم لغة العرب التي كان الشعراء الكبار يكتبون بها أروع قصائـدهـم .. لكن يبدو أن المؤرخين قد ظلموا زمنا طويلاً يستهينـــون بإيقاع الرجز . مما أُهملـت معـه تلك النماذج . فقد أختلف عليه النقاد والمؤرخون وأخرجه الكثيرون من فن الشعر.. حتى أن أبا العلاء المعري . نفسه . عندمـا صـــــور جنته في رسالة الغفران وأدخـــل فيها الشعراء.. لم تطاوعه نفسه المتأثرة بالتراث القديـم أن يدخل الرُّجاز في جنـة

الشعراء .. فأفرد لهم جنة خاصة جعل بيوتها أحطَّ وأقل درجات من قصور جنـة الشعراء.!

غير أن الحقيقة التاريخية تؤكـد أن الرجز أقدم ألوان الشعر التي عرفها العرب.. ويرى المستشرق (جولد تسهير) أن الرجز نشأ عن السجع بعد أن أُخضع للوزن.. على حين يرى المستشرق (هارتمان) أننا يمكننا أن نُرجـع إلى الرجـــز خمسة وعشرين بحرًا من البحور المستحدثة، ذلك أن العرب سموه كذلك من الرجز الذي يعتري الناقة أو البعير . وهو أرتعاد في الأفخاذ والمؤخر عند القيـام . وفي هذه الحالة يتصل الرجز بالحداء.

وربما ضاعت هذه النماذج . الترقيصات . وغيرهـا من الرجـــز العربي لأن كثيرًا منها كان يقال أرتجالاً دون إعداد سابق مما صعب حفظـــه أو تدوينه . فيما بعد.! وبالرغم من كل هذا فإن ترقيص الأطفال كان فنًّا ماثلاً من فنون الشعر العربي.. عرفه العرب وأبدعوا وأجادوا فيه.. كعنصر من عناصر التربيـة النفسية والجمالية للصغار..كما يمكننا كذلك أن نؤكد بكثير من الأرتياح أن هذه الترقيصات كـــان يؤديها الكبارإلى أبنائهم أو بناتهم.. مصحوبة بمناغاة خاصـة أو ربْتٍ على صـــدر الصغير..أوهزٍّ لمهده.. مما يجعله سعيدًا بما يسمع دون أن يتبين معاني ما يسمع . أكتفاءً بما تُحدثه الأبيات من إيقاعات وأنغام تلمِس وجـدان الصغير لمسًـا حميمًا ممتعًا. لكن..الأمر بطبيعة الحال يختلف حينما يتعـرف الطفـل على اللغة تعرفًا

حقيقيًّا.. ولنا معه وقفة أخرى بعد قليل.

(ب) أغاني الألعاب عند العرب:

الطفل بطبيعته يميل إلى اللعب . منفردًا أو مع أقرانه . ويميـل إلى ممارسـة ألوان مختلفة من الألعاب الرياضية، حتى أن الإسلام يدعو إلى تعليم الأولاد الرمايـة والسباحة وركوب الخيل.والطفل العربي قد وجد لعبته في بيئته الصحراوية.. يستمد منها أدواته وأفكاره المبتكرة وهى كثيرة في التراث العربي[11].. وكتب عنها كثيـرون مثل أبو إسحاق الشيرازي وغيره.

أما ارتباط الألعاب بالشعر.. فالتراث العربي حافل بهذه النماذج التي قالها شعـراء كبار في أعمارهمالصغيرة.. أو الكبيرة.. فصارت مثلاً أو صارت أغاني تنشـد في أثناء ممارسة اللُّعبة .. ومن هذه الأمثلـة قول امرئ القيس في لعبـة الزحلوقـة (الأرجوحة):

لمـن زُحْلُوقـــةٌ زلٌّ
بها العينـــان تنهـلُّ
ينادي الآخـر.. الألُّ
ألا حَلُّوا .. ألا حلُّوا[12]

ويفسر المفضل قـول امرئ القيس (ألاحلوا) بأن هذا معنى لعبـة الصبيان، إذ

[11]- انظر تفصيل ذلك فى كتاب (لعب العرب) – أحمد تيمور باشا – دار نهضة مصر – القاهرة 1977.
[12]- لاحظ بقاء مفردة (حلوا) إلى العصر الحديث على ألسنة الأطفال.

يجتمعون فيأخذون خشبة . فيضعونها على كومة رمل.. ثم يجلس على أحد طرفيها جماعة.. وعلى الطرف الآخر جماعة .. فأي الجماعتين كانت أكثــر .. ارتفعت الأخرى.. فينادون أصحاب الطرف الآخر (ألا حَلُّو) أي خففوا عن عددكــم حتى نساويكم في التعديل.. وهكذا!

وهناك لعبة أخرى تسمى (الحَدَبْدَبَي) .. ويعتقد أنها يُكني بها عن الرغبة في تجميع الصبيان للاستماع إلى قصة أو قصيدة شعر .. أو لبداية لُعبة أخرى: ومن هذه الكتابات ما قاله راجز:

حَدَبْدَبَي بَدَبْدَبَي منك الآنْ

استمعوا أُنشدُكُمْ يا صبيانْ!

أما وصف هذه الألعاب شعرًا فهو كثير . وليس هذا مجاله . إذ استخدمها الشعراء كثيرا في أغراض الهجاء والفخر وغير ذلك مما يلائم الموقف.

(جـ) الحُداء:

لم يكن الحادي شاعرًا محترفًا لدى العرب.. لكنه كان أقدر عليه من غيــره على أن يسلِّي أفراد القافلة.. وأحيانًا كان يستعين بالصبيان في ترديد حدائه.

وأغراض الحُداء كثيرة.. وكلها تتعلق بحالة السفر وما تفرضه هذه الحــالة من تذكر الديار.. والأولاد.. ووصف الصحراء والليل.. والشوق والحنين..

وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جعل في بعض أسفاره حاديًا للرجــال

هو البراء بن مالك..وآخر للنساء هو أنجشة.

وكان الحادي . مثل المرقص لأطفاله . يرتجل غالبًا ما يقوله دون إعداد سابق.. بما يوحى به الموقف.. في كلمات سهلة ميسورة تسر الكبارَ والصغار معًا.

وقد اشتهر عن عبد الله بن رواحة هذه الكلمات حينما أخذ بخطـام ناقة الرسـول الكريم وهو داخل مكة في العمرة التي قام بها بعد صلح الحديبية بعام.

خَلُّوا بني الكفارِ عن سبيله

يا رب أني مؤمــن بقيلـــه

أعرف حقَّ الله في رسولـــه

وهذا الفن نستطيع أن نضيفه إلى ما يمكن أن يُربي عليه أطفالُ الإسلام.. لسهولـة معانيه وطلاوة ألفاظه.. بل نكـاد نجـد هذا المثل الخالـد الذي لا يزال يعيش في وجدان..المسلمين جيلا بعد جيل يذكرنا بالهجرة الشريفة.. فلا نحيـد كثيرًا عن هذا الظن.

طلـع البـدرُ علينا

من ثنيـات الـوداعْ

وجب الشكـرُ علينا

مـــا دعـا لله داعْ

أيها المبعـــوث فينا

جئت بالأمـرِ المطاع

جئت شرَّفْتَ المدينـة

مرحبًا يا خيرَ داع ..

(د) وصايا الآباء للأبناء:

كان العرب أول ما يفعلون مع أولادهم حينما يدركون .. أن (يسمعوهم) الوصايا والمواعظ التي تضيء لهم طريق حياتهم..ومنذ كتب الحكيم لقمان وصاياه .. وكل الشعوب لها آثارها من الوصايا.. ولم يتخلف العرب عن ذلك، بل نجدهم قد أكثروا من ذلك حرصًا على تربية النشْء على القيم الصالحة.

وقد تكون الوصايا نثرية.. وقد تكون شعرية . والنثرية أكثر .كما يمكن أن نجد أكثر من لون من الوصايا.. بعضها مباشر.. وبعضها معاتب.. وبعضها يرغِّب وبعضها يرهِّب. فهذا أمية بن أبي الصلت يعتب على ولده بقوله:

غَذَوْتُك مولودًا وعِلتُكَ يافعًا ... تعلُّ بما أسعى عليه وأنهلُ
إذا ليلةٌ جاءتكَ بالشكوِ لم أكن ... بشكواك إلا ساهرا أتململ
كأنِّي أنا المطروقُ دونك بالذي ... طرقتَ به دوني فعينيَ تهملُ
تخافُ الردي نفسي عليكَ وإنها ... لتعلم أن الموتَ وقتٌ مؤجلُ
فلما بلغت السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ قبل أُؤَمِّلُ
جعلت جزائي غلظَة وفظاظَة ... كأنك أنت المنعمُ المتفضِّلُ
فليتك إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوتي ... . كما يفعل الجارُ المجاورُ . تفعلُ

إننا نستطيع هنا أن نتلمس الوصية والحكمة والنصح بطريقة فنية غير مباشرة.. وهذه ميزة مهمة من ميزات الشعر العربي، إذْ تُمكِّن اللغةُ الشاعرَ . بما تحمل من

إيحاءات وصور ومترادفات . أن يغوص إلى جوهر المضمـون . دون أن يلمـــس سطحه فتنفر منه الأذن ويعافه الوجدان.وفي إيجاز شديد يقدم سفيان بن عيينة هذه الكلمات إلى ولده..

بني إن البرَّ شيء هيّنُ وجْه طليق .. وكلامٌ ليّنُ

وهذا ابن سعيد المغربي . أحد شعراء القرن السابع الهجري . يوصى ولده وقـد أراد السفر فيقول:

أودعك الرحمـــنُ في غربتِـكْ مرتقبًـا رحمـــــاه في أوْبتِـكْ
فلا تُطِـلْ حبـــلِ النـوى إنني والله أشتـــــاقُ إلـى طلعتِـك
واختصر التوديع أخذا فما لي ناظرٌ يقْـــوَى على فُرقتكْ
واجعل وَصاتي نصبَ عين ولا تبرحْ مدى الأيـامِ من فكرتِـــكْ
خلاصـةُ العمر التي حُنِّكـتْ في ساعــةٍ زُفَّت إلى فطنتِـــكْ
فــلا تنمْ عـن وعيهـا ساعـةً فإنهـا عـون إلى يقظتـــــكْ
وامشِ الهوينَي مُظهِـرًا عفــةً وابـــغ رضَا الأعين عن هيئتِـكْ
واعتبـر النــاسَ بألفاظِهـــمْ واصحب أخًا يرغب في صحبتِكْ

والقصيدة طويلة تكاد لا تترك شيئًا يصلح أن يكون وصية إلا جاءت به..

وعلى هذا النحو أيضًا يسير عبدة بن الطبيب (المتوفي سنة 39 هـ) فيقول:

أَبَنِيَّ إني قد كبِـــرت ورابني
بصري وفيَّ لَمنظْر مستمتـعُ

أوصيكم تقوى الإلهِ فإنـــــــه

يُعطي الرغائبَ من يشاءُ ويمنعُ

وكثير من الوصايا النثرية تتضمن الشعر أيضًا.. ليكون قاسمًا مشتـــركًا في تربية الطفل على الذوق السليم والحكمة والقيم العليا.

ومن هذه الوصايا التي تجمع بين الشعر والنثر.. وصية يعرُب بن قحطان إلى بنيه .. حيث أخذ يوصيهم ويوصيهم حتى أنشد في نهاية كلامه:

بَنِيَّ أبوكُم لم يعْدُ عمـا به وصَّاه قحطانُ بنُ هودِ

فوصّاكم بما وصَّى أباكم أبوهُ عن أبيهِ عن الجدودِ

أذيعُوا العلمَ ثم تعلَّمُـوهُ فما ذو العلم كالكَلِّ البليـدِ

ويسوق كثيرًا من التعاليم والوصايا المفيدة..وتكاد تشي هذه الوصية بأمر مهـم، هو أن العرب منذ وجدوا على ظهر الأرض وهم يتوارثـــون الوصايا والعلم والخلـقُ الطيب.. بما جعلهم خير أمة أخرجت للناس.

وشاعر مثل طَرَفة بن العبد(543 . 569م) أنطقته الحكمـة وهو صغير .. ومكث يضرب الأمثال وينشد الوصايا وكأنه خبير بالحياة خبرة الشيخ الحكيم.. ومن أمثاله ووصاياه:

الخير خيرٌ .. وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيْتَ من زادِ

وأيضا:

خالطِ النـاسَ بخُلْـقٍ واسـعٍ لا تكنْ كلبًا- على النـاسِ تهر

كما تدل الأبيات التالية على سعة أفق .. وحكمة اجتماعية عميقة:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً فأرسل حكيمًا ولا توصِهِ

وإن ناصحٌ منك يومًا دنا فلا تنْأ عنــه ولا تُقْصِهِ

ولا تذكر الدهرَ في مجلسٍ حديثًا إذا أنت لم تُحْصِهِ

الأطفال والشعر المعاصر

سوف نتناول هنا أهم التجارب.. فنحاول أن نلـم بخصائصهـا وتأثـرها بالثقافات المعاصرة . كلما دعاناذلك . ثم نفرد لشعر الحيوان جانبًا خاصًّا باعتباره أشهر هذه التجارب على الإطلاق.. عائدين القهقري إلى جذوره.. في العربية وغير العربية.. وأعتقد أن القارئ . لا يختلف معي . بعد رحلتنا الطويلة السابقة . على أن عصرنا هذا . عصر التخصصّ الدقيق . قد انسحب أيضًا على عالـم الأدب .. بل يظهـر واضحًا في الشعر خاصة.. حتى نجـد هذا الأدب الذي يخصص للأطفال.. وذلك الأدب الذي يخصص للشباب.. وربما الأدب الذي يخصص لمراحـل أخرى بعد الشباب.

ولن نستطرد طويلاً في تشخيص هذه الصورة.. فهى ماثلة أمام أعيننا لا تحتاج إلى دليل مقنع.. خاصة ونحن نرى هذا (الأنشطار) اللغوي الذي نعاني منهم كل يـوم وكل ساعة . فلغة فصحى في كتب الأدب المكتوب . ولغة وسطى في الصحافـة . ولغة ليس لها ملامح في الوسائل المسموعة والمشاهدة.. ولغة (سوقية) في الشارع. ثم يحار أطفالنا بين تلك اللغات (أو اللهجات) كلها وهو يتراوح بين مدرسته وبيته وشارعه..ليس هنا مجال لبحث هذه القضيـــــة.. حتى لا ننصرف عن خطنا الذي بدأناه..ومكثنا طويلاً نكتشف طرقــه ومجاهليه إلى أن وصلنا،أو قفزنا إلى الشعر

المعاصر..والشعر المعاصر هنا يبدأ مع الأطفال من منتصف القرن الثامن عشر .. بعد أن تغيرت النظرة إلى الطفل على أيدي علماء التربية المعاصرين .. وقد يكون بدأ في مناطق أخرى من العالم منذ قرون ثلاثة . على يد شعراء أوربيين. نحاول الآن أن نمر بهم مرورًا سريعًا. بقصـــــد التعرف عليهم.. وعلى إبداعهـم .. وما إذا كان لهم تأثير في إبداعنا أم لا.

أدب الأطفال المعاصر:

يمكن القول إن قصص الأطفال هى اللون الوحيد الذي يتسم بالعالميـة.. ذلك أنها يسهل نقلها من لغة لأخرى كما كتبها مؤلفها على حين يختلف الأمربالنسبة للشعر الذي يصعب ترجمة الإحساس إذانجح المترجم في نقل المعنى..ولا شك أن الطرف الآخر من العالم قد سبق الشرق إلى التقاط الخيط وكتابة أدب الأطفال المعاصر.. إن..لافونتين(1620 . 1696): وحكاياته . التي استمد أكثرها من كليلـــة ودمنة وإيسوب . ولقمان . يقف في مقدمة من كتبوا الشعر للأطفال.

وجريم: الألماني الفقيه اللغوي كتبت له حكاياته الشعبية شهرة لا تقـل عن شهرة أبحاثه اللغوية.

وخوان رامون خمينث: الشعر الأسباني الذي حصل على جائزة نوبل عام 1956 لم تصرفه أحداث عصــره عن كتابة ملحمته الشعرية (أنا وحماري) فكانـــت قمة من قمم الأدب الأسباني على لسان حماره الفضي (بلا تـــيرو) وهو يطـوف أسبانيـا فيتأمل الوردة والفراشة والتل والشروق والغروب وكل المشاهـــد الأخرى.. بل أوجد

تيارًا لشعر الصغار ارتاده شعراء أسبانيا فيما بعد.

وطاغور:شاعر الهند العظيم يخصص أكثر من ديوان للأطفال، ينخلع فيه من دنيا الكبار ليعيش مع..الأطفال في حبهم وخيالهـم ولعبهم ويوشك أن يكون الطفل لديه رمزًا للحياة الخالدة، بل نجده يطبق ذلك عمليًّا، حينمـا ينشئ طاغور عام 1901 مدرسته الصغيرة ببعض الصبية ليضع لهم نظامًـا يوميًّا دقيقًا من التربية العقلية والروحية.

وفي مجال الشعر كذلك كتب وليم بليك . أغاني الأبرياء . (1789)وكتب إدوارلير . الأغاني التوفيقية عام 1846 . وفي ألمانيـا يكتب هو فمان أغاني للأطفال عام 1846 أيضًا.

أما لويس كارول فقد اشتهر بكتابه: أليس في بلاد العجائب.. لكنه كتب أشعارًا للأطفال عام 1865.. إلا أنها لم تستطع أن تحظى بشهرة كتابـه (أليس في بلاد العجائب) ويكتب كبلنج كذلك كتاب الأدغال عام 1894.. وكان من عادتـه أن يستهل قصصه بالشعر.. وكذلك ساهم بدواوين شعرية خاصة للأطفال..

أما الشاعر كارل ستاندبيرج فقد كتب أغاني مستمدة من الطبيعة تحت اسم (Fog) أي الضباب.. وهو يقصد تقلبات الطبيعة ومعطياتها المختلفة.

وحاول روبرت فروست في أمريكا كتابة الشعر للأطفال. حتى ت. س إليوت كتب عام 1939 (القطط العمياء) لكنه لم يحز على أية شهرة، ربما لأن شهرته كشاعر

وناقد ومفكر، طغت على ما عداها من أنشطة أدبيـة أخـرى، إلى جانب أن عقله الأكاديمي وثقافته الرفيعة وفلسفته العميقة لم تتح له المقدرة على مخاطبة الأطفال بالبساطة اللازمة.

وقد اهتم العَلم الأوربي والأمريكي (بأغاني المهْد) التي تعتمد أساسا على عنصريْ الموسيقى وتكرار المفردات (بمعنى أو بغير معنى) بحيث تكـــرر بمناغـاة وانتظام مما يجعل الطفل مستمتعًا بإيقاعاتها فحسب.وكلما ترقى الطفل في سني عمره قُدِّم له شعْر مناسب.. يتضمن الخيال والفكاهة والفلولكلور والأغنية التوفيقية.

ويذكِّرُنا هذا التصور بما كان عليه العرب مع أولادهم حينما قدَّموا إليهم وهـم في دور الطفولة . أهازيج الترقيص . حتى إذا شبُّوا وأدركوا دخلُـوا في عداد الكبار.

لكن يبدو أن الأمر هنا مختلف بعد هذه السن المبكرة، حيث يتحسس المربّون الطريق..إلى عقلية الطفل بحذر شديد.. فيقدمون إليه في كل مرحلة من مراحله ما يتوافق مع إدراكه وفهمه[13].. على حين كان القدماء أشجع وأقدر منا على الاقتراب من عقلية الطفل كما رأينا.

أما في مصر المعاصرة فلا نستطيع أن نغفل كتّاب الأطفال الذين اقتربوا من ذهن الطفل، كلٌ بما استطاع.. وهم كُثْر.. لا نستطيـــع أن نتجاهل أدوارهم.. ومنهم.. رفاعة رافع الطهطاوي صاحب كتاب (المرشد الأمين للبنات والبنين) وواضح من

[13]- انظر (مدخل عام إلى أدب الأطفال) من هذه الدراسة.

عنوان هذا الكتاب أنه جاء في صورة إرشاد للتلاميـــذ في مدارس وزارة المعارف..

يدل على ذلك ما جاء في مقدمته (خطبة الكتـــاب): "صدر لي الأمـــر الشفاهي من ديوان المدارس.. بعمل كتاب في الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السويّة.. فشمرت عن ساعد الاجتهاد.. وعملت هذه المجموعـــة التي جاءت على وفق المراد.. لم تدع في هذا لعين المتمنى مطمعًا ولا لقوس الاقتراح منزعًا زُفّت إليها أبكار المعالي.. إلخ".

ومن موضوعـات هذا الكتاب: مقدمـة في بيان تربية الأطفال.. والعقيدة الدينيـــة وفضائل الذكـور على الإناث.. والتعلم والتعليم.. والمدارسة والمطالعة.. والعلاقـة بين الفنون الأدبيـة والعلوم الأخرى .. والوطن .. والوطنية.

وواضح أن هذا الكتاب . وإن اعتبره الكثيرون علامة أولى على درب التعليم . إلا أنه لا يعتبر أدب..أطفال بالمعنى العلمي.. خاصة في ضوء المفهوم المعاصر.. الذي ينحِّى النصائح والإرشادات..المباشرة جانبًا.. وربما نُظر إليه على أنه عمـل مفيد لتعديل سلوك الأطفال وإرشادهم.

لكن ما كتبه محمد عثمان جلال.. وعبد الله فريج.. وأحمد شوقي.. ومحمد الهراوي ..وكامل الكيلاني..وغيرهم.. فنحن نستطيع أن نضعه بارتيـــــاح شديـد في أدب الأطفال؛أنها إضافات حقيقية في هذا المجال.

ولكي نقف على ما يهمنا في هذا المجال . الشعر . فسوف نتناولـــه في محورين كبيرين: شعر الحيوان . والشعر الذي يتناول مضامين مباشرة تتعلق بحياة الطفل

وقيمه وسلوكه.

شعر الحيوان:

سوف نصاحب . في الشعر العربي المعاصر أبرز صوتين كتبا شعر الأطفال على ألسنة الحيوان هما الشاعر محمد عثمان جلال(1838 . 1898م) . والشاعر أحمد شوقي(1870 . 1932).. وسنحاول كذلك أن نتحدث عن ملامح التأثر والتأثير بالنسبة لكل منهما.. ثم نتناول صوتًا ثالثًا أقل تأثيرا في هذا المجال.

والحق يقال إن الحكاية على لسان الحيوان . وأيضًا الشعر الذي يتحدث عن الحيوان قديمة في كل الآداب العالمية.. وهى عند العرب كذلك قديمة.

لقد عرف هذا اللون في حضارة مصر القديمة .. إذ يعتبر المصريون من أسبق الشعوب إلى هذه الحكايات حيث يرجع تاريخ (حكاية السبع والفار) التي وجدت على أوراق البردي، إلى (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) على حين ترجع خرافات إيسوب في اليونان إلى (القرن السادس قبل الميلاد) .. وبعض المؤرخين يرى أن الهند قد كتبت أيضًا حكايات الحيوان . في حكايات تناسخ بوذا . !

بل نجد علاقات الإنسان بالحيوان . ومنه الطير كذلك . تبدأ منذ وطئ آدم الأرض.. فغراب قابيل علَّمه كيف يواري سوءَة أخية، وإبراهيم عليه السلام قد اطمأن قلبه حينما نادي على الطير الميت فجاءت طائرةً إليه، وكبش إسماعيل عليه السلام قد

أنقذه من الموت المحقق، وحوت يونس قد حفظه حينًا ثم أخرجه حيًّا، وبقـرة بني إسرائيل كانت معجزة بين أيديهم، وحمار العُزَيْر وكلب أهل الكهـف يؤكدان قدرة الخالق العظيم على إحياء الموتى، وعنكبوت الغار يحفظ محمدًا عليه السـلام من بأس أعدائه ولم يكن العرب بعيدين عن إطار هذه العلاقة.. فقد شاركهم الحـيوان حِلَّهم وترحَالهم.. وطِرادَهم وغزواتهم .. وليلهـم ونهارهم .. فمنهم من أَنِس إلى الحيوان ومنهم من نفر منه..

كما أن كثيرًا من مفكري العرب وعلمائهم قد اهتموا بالحيوان.. فوضعوا له مؤلفات نادرة أشهرهـا كتب: للجاحظ.. والدميري . والقزويني . والسجستاني . والأصمعي.. وغيرهم..

أما الشعراء.. فقد جعلوا الحيوان مادة من مواد تجـاربهم يستقون منها كثيرًا من الموضوعات أو المعاني التي تثْري القصائد.. وتؤكد معرفتهم بالحيوان وسلوكه. ويضيق بنا المقام لو حاولنا الإحاطة بما قاله الشعراء في الحيوان.. ونكتفـي فقط بإيراد بعض الأمثلة التي تؤكد هذه النظـرة. فقد امتلأت كتب الأدب بمثـل هذه الأشعار التي لا تقع تحت حصر.

ومن ذلك مثلاً ما قاله حُميْد بن ثورْ الهِلالي في

وصف الذئب:

ونمتَ كنومِ الذئبِ في ذي حفيظةٍ أكلَت طعامًا دونـه وهو جائـعُ

ينامُ بإحدى مُقلتْيِـه.. ويتقِــي بأُخرى الأعادي فهو يقظان هاجعُ

أما الديك فقد أجاد أبو بكر الصُّنوبري في وصفه ومدحه حين قال:

مغردُ الليلِ ما يألُـوك تغريـدا

ملَّ الكَرى فهو يدعو الصبحَ مجهودا

لما تطرَّب هزَّ العطْف من طربٍ

ومدَّ للصـوتِ لما مدَّه الجيـــدَا

كلابسٍ مُطرفًـا مُرخٍ ذوائبـه

تضاحكُ البيضُ من أطرافـهِ السُّـودا

حالي المقلـّد لو قيستْ قلائـدهُ

بالورد قصَّر عنهـا الوردُ توريــدَا

أما أبو نُواس.. فله قصائد كثيرة يصف فيها الثعلبَ وكـلب الصيد .. والديك والفهد والصقر وغيرها..وأحيانا يكتب رثاء فيها حينما يألفُها ويفقدُها بالموت..فهـذه أبيات من قصيدة له يرثي بها كلبًا لسعته حيةٌ فمات.. يقول فيها..

يا بؤس كلبي سيدُ الكـلابِ

قد كان أغناني عن العقابِ

وكان قد أجزي عن القصّابِ

وعن شراءِ الجلَب الجـلاّب

يا عينُ جودي لي على حلاّب

مَنْ للظباء العُفْر والذّئـابِ

ثم ينتقل إلى وصف ما حدث له من الحَيّة إلى أَن يصلَ إلى هذه الأبيات:

فعلِقتْ عرقُوبَـه بنــابِ لم تَرْعَ لي حقًّا.. ولم تُحَابِ

فخرَّ وانصاعت بلا ارتيابِ كأنما تنفُخُ من جِــرابِ

لا أبتُ إن أبتِ بلا عقـابِ حتى تذوقي أوجعَ العـذابِ

ويصف شاعر آخر الطاووس بقوله:

سبحان مَنْ مِنْ خلْقِه الطاووسُ

طيرٌ على أشكالِــه رئيسُ

كأنّه في نقشِـه .. عــروُس

في الريشِ منه رُكبتْ فلـوسُ

تشرقُ في داراتهِ شمــوسُ

في الرأس منه شجرٌ معروسُ

كأنــه بنفسَـجٌ .. يمـيسُ

أو هو زهـرُ حــرمٍ يبيسُ

بل أخذ بعض الشعراء مادة الحيوان للألغاز والفكاهة.. كقول أحد الشعـراء ملغزًا

عن الفيل:

ما اسم شيء تركيبهُ من ثلاثٍ

وهو ذو أربع تعالي الإلهُ

قيل تصحيفُه .. ولكن إذا ما

عكسُوه يصيرُ لي ثلثاهُ

وهذا أبو إسحاق لصابي قد أَلِف الببَّغاء.. وتعرَّفَ على ما تفعله من محاكاة وإمتاع

لصاحبها، وهى بين سجن قفصها الحديدي. فكتب فيها يقول:

ألفيتُها صبيحةً مليحةْ ناطقةً باللغة الفصيحةْ

عُدَّت من الأطيارِ واللّسَانُ يوهمُني بأنها إنسانُ

تُنهى إلى صاحِبها الأخبارَا وتكشف الأسرار والأستارَا

بكماءُ إلاّ أنها سمِيعةْ تُعيد ما تسمعُه . طبيعةْ .

زارتْك من بلادِها البعيدةْ واستوطنت عندكَ كالقَعِيدةْ

ضيفٌ قِراه الجَوْزُ والأرُزُّ والضيفُ في إتيانه يُعَزُّ

تراه في منقارِهِ الخَلُوقِي كلؤلؤ يلقُط بالعقِيقِ

تنظرُ من عينين كالفصَّين في النورِ والظلمةِ بصّاصين

تميسُ في حُلتهاَ الخضراءْ مثل الفتاةِ الغادةِ العذراءْ

خريدةٌ خدورُها الأقفاصُ ليس لها من حَبْسها خلاصُ

تحبسُها ومالها من ذنْبِ وإنما ذاك لفـــرطِ الحبِ

والذي نلاحظه على هذه الأشعار، أنها لا تقل جودة ولا فنية عن ألـــوان وأغراض الشعر الأخرى التي يكتبها الشعراء.. وأن الصغار والكبار كانوا يستمتعون بها.. فلم تكتب خِصّيصًا للصغار.. لكنها كتبت بمفهوم عصورهم على حين من الممكن أن يعاد تقديمها اليوم في ثوب جديد[14].

فإذا ما انتقلنا إلى عصر ابن المقفع (724 . 759م).فنحن أمام نقلة أخرى في أدب الحيوان أحدثها ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) إلى العربية.

إن نظرة فاحصة خلال ما كتبه الشعراء والأدباء عن الحيوان في الأدب العربي قبل نقل (كليلة ودمنة) تبين لنا ظاهرة مهمة هى أن الشعراء قد جعلوا الحيـــوان مادة (وصفيّة) في أشعارهم أو ركنًا من أركان التشبيه والتصوير والتمثيل.. ومثل هذا كان تيارًا قويًّا تزعمه كثيرون من الشعـــراء الوصافين مثل ذي الرمة والبحتري وغيرهما.. ولم نعثر على حكايات يرويها الحيـــوان وتؤخذ منها الحكمة أو الرمز أو العبرة أو القيم إلا نادرًا.

لكن الأمر قد تحوّل، أو لنقلْ، أضيف إلى فـــن وصف الحيوان والحديث عنه فن آخر هو فن (الحكاية على ألسنة الحيوان)..ويعترف كثير من مؤرخـــي الأدب بأن

[14]- لقد بدأ المؤلف فعلا تجربة إعادة تقديم نماذج من أشعار القدماء التراثية في أغراض مختلفة للأطفال تحت عنوان (ديوان الطفل العربي).

القِصص على لسان الحيوان قد اتخذت لها رافدًا في أرض الأدب العربي منذ نُقلت (كليلة ودمنة).. وما سبق من محاولات في هذا الصدد كانت عفوية أساسها شرح بعض الأمثال العربية، أو أنها مقتبسة من كتب العهد القديم وغير ذلك..وهى قليلة نادرة لا تمثل ظاهرة.. وحينما قام ابن المقفع بنقله نثرًا إلى العربيـــة .. ترجم مرة أخرى على يد (عبد الله بن الأهوازي) بتكليف من (جعفر البرمكي) .. كما نظمــه شعرًا . وهذا له أهميته الخاصة . (أبان اللاحق) .. وحاكاه في ذلك شعراء كثيرون مثل (سهل بن نوبخت) .. وغيره.

وفُتح الباب لمحاكاة (كليلة ودمنة) على مر العصور..ومن ذلك أن سهل بن هارون ألف كتابـه (ثعلة وعفراء) على غراره .. وحاكـــــاه كذلك داود سهل بن هارون في كتاب (النمر والثعلب) . كما نسج (إخوان االصّفا) رسائلهم على منـــــوال (كليلة ودمنة) . وقد نقلوا هذا الجنس الأدبي من الميدان الاجتماعي والسياسي إلى الميدان الفلسفي فألفّوا محاكمة طويلة بين الإنسان والحيوان أمام ملك الجان.[15]

ثم جاء أبو العلاء المعـري عام(449هـ) في كتابيه: (رسالـــة الصادح والباغم)، و(كشف الظنون) ليشير إلى أنه وضع عدة مؤلفـات على لســـان الحيــوان منها (القائف) و (خطب الخيل). و (أدب العصفورين) . إلى جانب (الصــادح والباغم).

[15]- يستطيع القارئ الرجوع إلى كتاب (الحكاية على لسان الحيوان في شعر شوقى) د. سعد ظلام – مطابع دار التراث العربى فقد ألمّ المؤلف بكثير من القضايا التى تتعلق بموضوع شعر الحيوان .. وقد رجعنا إيه كثيرا فى هذا المجال.

وقد سبق كُتابُ الغرب إلى الأستفادة من هذه الآثار العربية . وغير العربية . وكتبوا على منوالها حكايات على أفواه الحيوانات، أحدثت أثرًا طيبًا في عالم الأدب.

وأول من فعل ذلك عن قدرة فائقــة . لافونتين الفرنسي . وهو يقـرّر ويعتـــرف أنه استقى حكاياته من مصدرين كبيرين هما: كليلة ودمنة . وخرافات إيسوب.

محمد عثمان جلال:

لم يتنبه أحد من العرب إلى هذا الفن قبل منتصف القرن التاسـع عشر حيـن كتب محمد عثمان جلال كتابه (العيونُ اليواقظ في الأمثال والمواعظِ) الذي يشتمل على مائتيْ قصةٍ شعرية.وكان عثمان جلال يجيد الفرنسية، حتى أن مؤلفاته في جملتها ترجمة عن هذه اللغة وهى تناهز عشرة مؤلفات بين مسرح وروايـــــة وأقصوصـة وأرجوزة.. إلى جانب نظمه ديوانًا من الشعر والزجل والفكاهات.. وجاء فــي مقدمة كتابه:

"أخذت أترجم في الأوقات الخالية كتاب العلاّمة الفرنسي الكبير (لافونتين) . وهو من أعظم كتب الآداب الفرنسية المنظومة على لسان الحيوان.. على نسق كتب: الصادح والباغم . وفاكهة الخلفاء.. وسميتها (العيونُ اليواقظ في الأمثال والمواعظ) وتعاقدت مع رجل فرنسي يدير مطبعة من الحجر..ولكنه أخلف وعده لي.. فجهز ت مطبعة أخرى. وأنفقت عليها كل ما عندي فلما تم طبعها..عرضتها على العزيز

عباس باشا الأول.. وكان واسطتي إليه المغفور له مصطفى فاضل.. فرمى كتابي في..وجه حامله. فعاد بِخُفّيْ حُنين.. فبعتُ حِماري وبقية ما أملك..وقد ركبني الهم والغم.. إلخ.."

وقد طبع هذا الديوان للمرة الأولى (ما بين عامي 1848 . 1854) . وهذا له أهمية تاريخية غيرمسبوقة في العصر الحديث . ثم طبع مرة أخرى بعد وفاته بعشر سنين عام1908وأيضًا قررته نظارة المعارف العمومية بمدارسها الابتدائيةعام 1894[16].

وباستعراض ما تناوله عثمان جلال نظمًا.. نجده تأثر بمصادر خمسة هى:

1. أعمال لا فونتين الفرنسية . وهى الأعمال التي تأثرت من قبل بكليلة ودمنة وإيسوب.
2. حكايات إيسوب اليونانية.
3. كليلة ودمنة .. العربية.
4. التراث العربي المتناثر في بطون أمهات الكتب العربية.. والحكايات الشعبية والتراثية المختلفة.
5. رسالة الصادح والباغم.. وفاكهة الخلفاء.. وقصائد أبي نواس، وغيره ممن وصفوا الحيوان.

وواضح من أغراض الكتابة عن لسان الحيوان . قديمًا وحديثًا . أن الكاتب يتخذها

[16]- قام الشاعر عامر بحيرى بتحقيق الطبعة الثالثة من (العيون اليواقظ) وصدرت عن هيئة الكتاب عام 1978 – وأيضا: انظر الحكاية: د. سعد ظلام ص747.

قناعًا يقول من خلاله ما يشاء.. ويحميه من محاسبة الحاكم إذا هو أراد النصيحة والزجر في إطار من الهزل والجد معًا. وفي هذا حسن تصرف ولباقة وإقناع وتهذيب.. وبعُد عن المساءلة.. تحت ستار الرمز..وربما كان هذا هو الذي يدعو شعراء اليوم إلى الإيغال في الرمز . لحد الغموض . لشعورهم بعدم حرية التعبير أو أن هناك سيفًا يهدد حياتهم وألسنتهم.. لكن الأستمرار في هذا قد يُبعد المتلقي كثيرًا عن المغزى الذي يقصده الشاعر.. إذ أن الرمزية في الأدب ينبغي أن تكون ضربًا مهمًّا من ضروب الفهم والإحساس والإمتاع جميعًا.

ويمكننا أن نقول بارتياح شديد إن عثمان جلال قد نقل . أو عرَّب . الحكايات عن لافونتين وألبسها ثوب الروح المصرية .. واللغة العربية القريبة من الاستعمال اليومي . وهذه قدرة لا توفر للكثيرين . وقد أجمع النقاد . ومنهم العقاد وغنيمي هلال . أن ترجمة الكتاب كانت حرة بحيث اختفت فيها معالم الروح الفرنسية.. وظهرت فيها الروح المصرية بوضوح شديد. وهذا فضل يضاف إلى فضل إدخال هذا اللون إلى العربية.وقد سبقه في ذلك ابن المقفع نفسه وهو ينقل عن الفارسية (كليلة ودمنة) فقد أضاف بعض الأبواب إلى أصل الترجمة.. حتى ظن الكثيرون أن ابن المقفع هو واضع الكتاب.. مستوحيًا أبوابه من مصادر أجنبية.

ومن الحكايات التي أضافها عثمان جلال كذلك إلى مؤلفه، تلك التي تسمى (بني

الفلح) فهى تعبير عن..الحياة الريفية المصرية. كما أنه جعل مسرح حكاياته كثيرًا من المناطق المعروفة في مصر مثل(بولاق) أو المنطقـــــة العربية كلها كالشام ومصر والحجاز.ولا شك أن القارئ في شوق لقراءة بعض النصــوص التي كتبهـا عثمان جلال.. ولنبدأ معه بهذه القصيدة:

" صاحب الدجاجة "

كان البخيلُ عنده دَجاجــهْ

تكفيه طولَ الدهر شرَّ الحاجهْ

في كلّ يوم مرّ تُعطيه العَجَبْ

وهى تبيضُ بيضَة من الذّهبْ

فظنّ يومًــا أن فيها كنـزا

وأنه يـزدادُ منـــه .. عِزًّا

فقَبضَ الدجاجــةَ المسكيـنُ

وكان في يمينِــه سِكّيــنُ

وشقَّهـا نصفينِ من غفلتِـهِ

إذ هىَ كالدَّجـاج في حضرتِه

ولم يجـدْ كنزًا ولا لَقِيَّــهْ

بل رمّة في حُجـرةٍ مرميـهْ

فقال: لا شـك بأن الطّمعَـا

ضيّـع للإنسـان ما قـد جَمَعَا

ونلاحظ هنا اختيار المفردة التي توشك . من سهولتها . أن تصبح عامـية .. لولا أن المؤلف يقبض ناصية اللغة باقتدار شديد.

وهذا مثل آخر بعنوان: (الغراب والنّسْر)

رأى الغرابُ النسرَ مر بالغنـمْ

واختطف الصغير منها واغتنم

فأخذتــه غيــرةُ التقليـد

وجاء للأغنــام من بعيــدِ

وحـام كالنّسر على الغنيمـةْ

واختار كبشًــا عُدّ للوليمـةْ

وكان صوفُ الكبشِ في التأسيس

ملبَّـــدا كلحيــة القسِّـيسِ

فأنشبَ الغـرابُ فيه باعَــا

وهمّ للجــوّ فمــا استطاعَا

وبقيت أظافـــرُه مغلولــةْ

ولم يجـد بُـدًّا لأي حِيلـــة

فأقبـل الراعي مــع الأولادِ

وأمســك الغـرابَ بالأيـادِي

وقصَّهــا علىَّ.. قلـتُ: سيدي

ما أضيــع البرهان في المقلِّــدِ

ويحكي عثمان جلال كذلك قصة . الأرنب والضفادع . هكذا:

رأيت أرنبًا ذليلاً خائفَا

أوي إلى بيت هنـاك واختفى

ودام في شُغل من الأفكار

في حندس الليل.. وفي النهارِ

حتى عفا.. من همّه وغمّهْ

ومن أبيه يشتكــي.. وأمِّـهْ

ولي يقول.. ليت لم تجدْني

وليت أُمّي قطّ لــم تلدْنِــي

وكيف لا وعيشُهُ منغصُ

وكلّ يوم تعتريــه الغصصُ

إذْ هَبّ ريحٌ بفروع الشجر

يزحف منه خائفًا ويجــري

ينام لكن عينُهُ يقظانــه

وروحُـه من فـزع ملآنــة

فجاءه محدّثٌ ذو عقـل

وقال: ذا خوفٌ بغير أصــل

ما هذه الحالُ.. فقال: خوفٌ

والناس مثلــي واحـدٌ وألفُ

إلى نهاية القصيدة التي تدعو إلى شجاعة وتمقت الجبن والخوف.

من الصعوبةبالطبع أن نقف على كل نماذج الكتاب دون أن يكون بين أيدي القارئ لكننا حاولنا هنا أن نختار ثلاث نماذج مختلفة، يجمعها حس الشاعر ولغته المبسطة التي لا نكاد نحس إزاءها صعوبة إلا في القليل النادر.

وربما يفسر لنا ذلك كيف أصبح الطفل المعاصر مدللاً . بعكس أطفـال العصـور العربية الأولى كما سبق أن أشرنا . وعلى الكاتبين أن يصلـوا إليه بأدب . مغلَّف . بالبساطة والعذوبة، والمباشرة أحيانًا.. والحيلة أحيانًا أخرى.. فجاءت نماذج عثمان جلال ومَنْ بعده نثرًا وشعرًا . نماذج القصص والأشعار. يتلمـس الكاتبـــون فيها السبيل بحذر شديد إلى عقلية الطفل الذي أصبـح . وهذه حقيقة مـرة . يعاف اللغة والتراث والمعاناة.. ويفضّل السهل الذي لا يدمي أقدامــه ولو بقليل من الإحساس ببشريته.وهذه الصورة قد تضع الكاتبين في مآزق شتى.. منها المباشرة والتقريرية.

وفقدان الإَحساس بالجمال . لغـة وصورًا ومعنى . فيضحُّون بكل هذا خشيـــة أن يهرُب منهم الصغير إلى وسائل أخرى تقدم له ما يريد بدون معاناة.!

لهذا يمكـن أن نلتمس العذر لمثل هذه المحاولات الأولى .. التي يريد صاحبهـا أن تتسلل إلى وجدان الصغير بأي ثمن.. فجاءت مباشرة .. فيها بعض التكّلـف على حساب اللغة أو المعنى أو الشعـر نفسه . كفن . وتقترب من النثر . أو النثرية . لكن المهم في الموضـوع أنها كانت باكورة المحـاولات في هذا الصـــدد كتبت في منتصف القرن التاسع عشر.. فكانت أسبق خطوة إلى وجدان الطفل.

<u>أحمد شوقي:</u>

قدم أحمد شوقي للأطفال بابين في ديوانه هما: باب الحكايات . وديـــوان الأطفال . وقد كتب شوقي هذه الحكايات ما بين عامي(1892 . 1893)لكنها نشرت في طبعة ديوانه الأول التي صدرت عام 1898م.ومن ثم . وإحقاقًا للحق . فإن محمد عثمـــان جلال قد سبق شوقيًّا في كتابة هذا اللون.. فالثابت أن عثمان جلال قد نشر الطبعـة الأولى من (العيون اليواقظ) ما بين عامـي 1848 و 1854 . أي قبل مولـد أحمد شوقي نفسه بنحو خمس عشرة سنة (ميلاد شوقي 16 أكتوبر عام 1870).

ولا بد أن شوقيًّا قد تأثر بالطبعة الأولـى من (العيون اليواقظ) التي صـدرت قبـل ميلاده، إذ أن الطبعة الثانية منه صدرت بعد وفاة عثمان جلال نفسه بعشر سنوات

(1908) . وبعد صدور أول طبعة من ديـوان شوقي أيضًا بعشر سنوات .. وهذه حقيقة تاريخية يهملها الكثيرون..حتى شوقي نفسه لم يذكر في مقدمته لديوانه في طبعته الأولى أن تأثر، أو حتى قرأ عثمان جلال،وإذا سلمنا بأنه لم يقرأه فهذا أيضا مما نعيب به على أحمد شوقي .. إنه يقول في مقدمته:

(وجرّبت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير .. وفي هذه المجموعة شيء من ذلك، فكنت إذا فرغت من وضع (أسطورتين) أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين، وأقرأ عليهم شيئًا منها فيفهمونه لأول وهلة .. ويأنســـون إليه ويضحكون من أكثره .. وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعـــل لأطفـال المصريين، مثلما جعل الشعراء للأطفـال في البلاد المتمدنــة، منظومات قريبـــة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم.)[17]

ثم يقول:

(وإنى كنت أتمنى ولا أزال ألـوي في الشعر على كل مطلب .. وأذهب من فضائه الواسع في كل مذهب.. وهنا لا يسعني إلا الثنـاء على صديقـي . خليل مطــران . صاحب المنن على الأدب والمؤلّف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهـج العرب.. والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء..وأن يساعدنا سائر

[17]- يذكر المؤرخون أن ما كتبه شوقى من شعر الحيوان قد نظمه فى أثناء وجوده فى فرنسا .. وكان يجمع الأطفال المصريين ويقرؤه عليهم ..

الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية). وينتهي شوقي من تعليقه أو تقديمه لشعره الذي كتبه للأطفال ذاكرًا بالثناء صديقه خليل مطران . صاحب المنن على الأدب والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب . هكذا.. دون أن يذكر كلمة عرفان أو اعتراف بتأثره بأعمال عثمان جلال وبالطبع لا نستطيع أن نسلّم بأن شوقيًّا . من موقعه في عصره . لم يتعرف على أعمال عثمان جلال . خاصة الشعرية . بصفته شاعر الأمة فيما بعد!.

وقد سار على سُنة شوقي من بعده كثير من النقاد المؤرخين.. فأهملوا من جاء قبله .. وعدّوه أول من كتب شعر الأطفال في العربية وأنه كان وحيدًا في الساحة[18] .. وأغلب الظن أن شوقيًّا بحكم شاعريته وقربه من السلطة . في زمانه . كان يملك أن يُقنع الناس بما يودّ أن يقنعهم به.. فهو (يجّرب خاطره في نظم الحكايات) . ويدعو شعراء آخرين أن يتبعوه في مسيرته.. فينُظَر إليه على حساب غيره الذي يعيش في الظل!

لقد أردت أن أسوق هذه الحقيقة التاريخية في سبق الكتابة الشعرية للأطفال.. دون أن أتخذ موقفًا مضادًّا من أمير شعرالعربية.. فقد أضاف أيضًا غ الكثير إلى ساحة الشعر وكتب للأطفال شعرًا، قد يتفوق على ما كتب عثمان جلال (نلاحظ فرق الزمن والتجربة بين الشاعرين وما يعكسه على عقلية الطفل...) لقد تأثر شوقي .

[18]- انظر (ملاحظة أولى) فى صدر هذا الكتاب وانظر : الحكاية: د. سعد ظلام ص747.

ليس بلافونتين وحده . ولكن بكليلة ودمنة، وحكايات التـراث كذلك لكن النظـــــرة الموضوعية إلى شعر شوقي للأطفال،تبين لنا أن قصائده تلك ليست بنفس السلاسة والبساطة التي كتب بها عثمان جلال. فهى تتميـــــز بسمات رمزية يصعب على الأطفال . أحيانًا . فهمها إلا بواسطة معلّم.. يضاف إلى أنها في مجملها ذات ألفاظ لا يتسع لها قاموس الطفل اللغوي.. وكـذا قاموسه الإدراكي..وربــما يعود ذلك إلى أن شوقيًّا كان يكتب للأطفال من موقعـه كشاعر كبير أوحد.إلى جانب وجود تلك المـادة الجاهـزة التي لا تتطلـب غيرالترجمة الشعرية إلى العربيـة، ومع هذا فــإن كثيرًا من هذه النمـاذج قد اختيرت لتقديمها للأطفال في المدارس المصريةإلى فترات طويلة.

ومع كل هذا فقد قدم شوقي إضافـة ملموســة في هذا المجال.. فمن أشهر حكاياته الجميلة نختار هذه القصيدة:

(الثعلب والديك)

بـرز الثعلــب يومـا في ثيـاب الواعظينا
فمشى فــي الأرض يهدي ويســبُّ الماكرينـا
ويقـول الحمــدُ للـ ـه إلــهِ العالمينــا
يا عبــاد الله توبُــوا فهو كهـفُ التائبينـا
وازهدُوا في الطير إنّ الـ ـعيشَ عيشُ الزاهدينا

واطلبوا الديــك يـؤذنْ لصلاة الصبـح فينـــا

فأتى الديــكَ رســولٌ من إمـام الناسكينـــا

عرض الأمـــر عليــه وهو يرجُـو أن يلينـــا

فأجابَ الديــكُ: عُـذْرًا يا أضــلّ المهتدينـــا

بلّــغ الثعلــب عنــي عن جُدُودي الصالحينا

عن ذوي التيجان ممّــن دخل البطـــن اللعينا

أنهم قالوا وخيــر القـ ـول.. قـــولُ العارفينا

مخطئ مَنْ ظـــنّ يومًا أن للثَّعلـــب دينـــا

وفي قصيدة أخرى بعنوان: (الدب في السفينة) يقول:

الدبُّ معروفٌ بسوء الظــن

فاسمع حديثه العجيب عنّي

لما استطال المكثُ في السفينة

ملّ دوام العيشـــة الظنينة

ثم يسوق الحكاية وهى واحدة من حكايات الحيوان في سفينة نوح.. ومنهـا كذلك حكاية (الحمار في السفينة) ويقول فيها:

سقط الحمار من السفينة في الدجى

فبكى الرفاق لفقده وترحموا

حتى إذا طلع النهــار أتت به

نحو السفينــة موجة تتقدمُ

قالت: خذُوه كما أتانـي سالمـا

لم أبتلعــه.. لأنه لا يُهضم

وهى من الحكايات الفكاهية التي أكثر منها شوقي في هذا الديوان.

وهذا نموذج آخر بعنوان (ولد الغراب) نقتطف منه هذه الأبيات:

وممهّدٌ في الوكرِ مِـن ولدِ الغـــرابِ مُزَقّـقِ

كرويهـب متقلـــس متـــأزّر .. متنطـقِ

لبس الرماد على سوا دِ جناحـه والمقـــرق

كالفحم غادر في الرّمـا د بقيـة لم تحُـــرَق

ثلثُـاه منقـــــارٌ ورأ سٌ والأظافر ما بقى

إلى آخر الحكاية التي تحكي أمًّا فُتنت بولدها الصغير وتخيلته كبيرًا، فرمت به مـن الجو بدون حرص عليه.. فتمزق فوق الأرض.. وأقبلت الغربان عليه.

وبقدر ما نجـد بعض الصعوبة في الرمز واللغة.. إلا أن هناك نماذج كثيرة يتفوق فيها شوقي على نفسه.. مما يعد إضافة حقيقية إلى شعـــر الأطفال على ألسنــة الحيوانات.

عبد الله فريج:

وهذا ناظم أصدر عام 1893 كتابَ (نظم الجان في أمثال لُقمان) وهو يتضمن خمسين مثلاً وضعها المؤلف في صورة أراجيز تحكي حكايـــة عن الحيوان أو الإنسان أو البنات ثم ينهي الأرجوزة بالمثل الذي أنحدر إلينا من أمثال لقمان..

وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب:

(لما رأيت الديار المصرية قد رقت في الحضارة إلى درجة علية.. لا سيما في زمن مولانا العباس.. الذي أينعتْ فيه المغارف كرياض الآس .. هذا وقد قرر المجتمع اللغوي في بعض جلساته بعد النظر المدقق في مباحثاته .. أن يكلّـــف تلاميذه المدارس الأميرية.. في عهد الوزارة الرياضية . أي رياض باشا . بحفظ منتخبـــات من أشعة البلغاء .. ليكتسبوا بذلك ملكة الإنشاء .. وقد أخذتني الغيرة الوطنية أن أخدم بلادي بخدمة رضية.. تعود على أبنائها بالفائدة.. وتأتي لهم بالمنافع الزائدة. . فاستعنت في ذلك الواحد الفاتح.. مصدر الحكمة وينبوع الصلاح . وعمدت إلى أمثال سيدنا لقمان.. الذي شهد له تعالى بالحكمة في منزل القرآن.. وإلى ما جرى ذلك من الأمثال الرائعة ذات الأبيات راسخة القافية.. ثم جعلتها خدمة أدبية لتلاميذ المدارس الابتدائية.. إلخ)

ويتضح من هذه المقدمة أن الشاعر قد عمد إلى مصدر أساسي، هو أمثال لقمان، وإن كان استعان..بأمثال قريبة أخرى لا تخرج عن روح..أمثال لقمان.. ولهذا لم

تقتصر أراجيزه على حكايات الحيوان..فقط..بل وجدنـاهينوَّع في الموضوعـات مثل : بستان وعوسج . الحداد وكلبه . امرأة ودجاجـة..

حطاب والموت . زنجي . صبي كذوب.. شجرة بلوط والسنابل..أما أسلوب النظم فقد جاء متكلَّفًا إلى حد كبير يدل على عدم شاعرية كافية . وإن كان للمؤلف هذا ديوان آخر من الشعر في أغراض مختلفة.

وقد بدأ كتابه عن الأسد مع حيوانات كثيرة مثل الثور . والثعلب والجرذون . والذئب.. ثم الإنسان.. ثم الوحوش جميعًا.. وتنقل مع الحشرات والنبات والطيــور والإنسان . في كثير من الحكايات التي تنتهي . كما قلنا . بإيراد المثل اللُّقماني. ومن ذلك:

قد خطف الذئب من الرعيان

في يوم جوع أحدَ الخرفان

وبينمــا كان بــه يسيـرُ

قابلـــه ليثٌ لهـ زئيــر

يقول مهلاً خاسرَ الإيمــان

ألست تخشى هيبةَ الديّـان

ومن يديه اغتصب الخروفا

يقول فيما بعدُ كــنْ عفوفا

فقال ذاك الذئب وهو في خجلْ

علىَّ تمَّ اليوم ما قـال المثَل:

ما ظالمٌ عن خوف مولاه عمى

إلا ويبلي في الـورى بأظْلمِ

وهكذا نرى أنها ترجمة حرفية لأمثال لقمان التي وصلت بعضها إلينا . أو حرفت أو أضيفت إليها واختلطت مع غيرها . حتى أصبحت أمثالاً واردة مألوفة.

وهذه أرجوزة أخرى بعنوان (امرأة ودجاجة) يقول فيها:

قيل بأن امرأة محتاجـة

كانت لها في بيتها دجاجـة

لها تبيض بيضة في اليوم

من فضة سادت بها في القوْم

فافتكرت من غَيها الغبيّة

أن تكُثر الطعـام للشقيّـة

لعلهـا تبيضُ بيضتين

أعنى بذا في اليوم مرتيـن

وإذْ لها زوّدتِ الغَـذاءَ

وأوسعت أحشاءها امتـلاءَ

انفجرت حوصلةُ المسكينة

وأصبحت مولاتُها حزينـةْ

وصحّت الأمثال أنّ بالطمعْ

يفرّق الإنسان كلَّ ما جمـع

ويتناول ما اتفقت عليه الأمثال من أن الطبع يغلب التطبع.. لكن في صورة عجيبة حقًّا هى صورة (الزنجي الأسود) حيث يقول:

مر حكيمٌ من ذوي الفضائلْ

يومًا على بعض من السواحلْ

وقد رأى هناك عبدًا أسودَا

فوقف الحكيمُ حتى يشهــدَا

وإذ رآه فاركًا بالثلـــجِ

جسمًا وما أدراك جسمُ الزّنجي

في أمل بأنـــه يبيضُّ

والاســوداد عنه قـد ينفضُّ

قال له الحكيـم في الكلام

أقصرْ عَناك يا أخـا الأوهـام

إنّ اسودادَ الثلج يا بن الخالْ

أقربُ من بياضـك المحــالْ

إذ قيل إن الطبع يبقى في البدنْ

ولم يغيره سوى درجِ الكفَـنْ

على كل لقد قصدنا من هذا ألا نغفل هذه التجربة على قلتها وتكلفهـا في الكثير..

لكنها نجحت . بالرغم من كل ما يؤخذ عليها . في نظم الأمثال..أما إذا وضعت في موازنة مع الأراجيز العربية الأخرى في تراثنا التي تتناول الأمــثال . مثل أرجوزة أبي العتاهية مثلاً ما نالت شيئا من السبق.. لغلبة المباشرة فيها والنثرية والتقريرية. . وربما كان هذا سببًا في إغفاله تمامًا من الذكر بالرغم من أنه عاصـر "عثمــان جــلال" و "أحمد شوقي".

أشعار أخرى للأطفال:

لقد تناولنا آنفًا شعر الحيوان لدى أبرز علامتين معاصرتين هما محمد عثمان جلا ل وأحمد شوقي، ولا شك أن غيرهما فيما بعد قد استجاب لهماوسار على نهجهمـا لكن بقدر أقل، أما الجانب الآخر من شعر الأطفال . وهو الشعر الذي يصـاغ في صورة أناشيد تتضمن الوجدان والوصف وحب الوطن وغيرها من الموضوعــات التي تحيط بالطفل.. فقد كتب فيها كثيـرون .. منهم كذلك عثمان جلال وشوقي..

وتيسيرًا للبحث أيضا سوف نتابع هذه الأشعار لدى أصحابها المشهورين المؤثرين..

محمد الهراوي (1885 . 1939):

يُعد (محمد الهرَّاوي) من أوائل الذين انصرفوا بجد وإخلاص إلى شعر الأطفـال.. خاصة أنه كان قريبًا منهم، فقد كان يعمل في دار الكتب . التابعة لوزارة المعارف. عاش الهراوي عصر الأستعمار البريطاني الذي يعمل جاهدًا على تلويـــن الثقافة والتعليم بما يخدم أغراضه.. ومن ثم بدأ الهراوي في مقاومة هذا الأتجاه عن طريق كتابة أشعار للأطفال مستمـدة من دينهم وأدبهـم العربي وتاريخهـم العريـــق .. وحاضـرهم المناضل .. مما جعـل وزارة المعارف تقرر دواوينه على مدارسهـــا المختلفة.

بدأ الهراوي تجربته على مستويات الأطفـال المختلفة من الإدراك والاستيعـــاب.. محاولاً أن يكتب لكل مرحلة من العمر ما يناسبها من الأشعار . وهى محاولة يجهد الكاتبون اليوم أنفسهم في الوقوف عليها وتقديم كتاباتهم في ظّلها. كتب الهراوي:

سمير الأطفال للبنين (3 أجزاء).

وسمير الأطفال للبنات(3 أجزاء).

وأغاني الأطفال .. والسمير الصغير ..

وديوان الطفل الجديد . ملحـق به رواية الذئب والغنم . (تمثيلية غنائية بالشعر في فصل واحد) هكذا! وديوانًـا من الشعر الديني بعنوان: أنباء الرسل .. مستمدا من

القرآن والكتب المقدسة، أصدر الهراوي هذه الأعمال الشعريـة مزينة بالصـور . صفحة للقصيدة . وصفحة مصـورة توضيحيـة . ولهذا أقبل الأطفـال على هذه الأعمال في نهم شديد ..

ويبدأ الهراوي رحلته مه الطفل.. فيأخذ بيده ويعرّفه على العالم من حولـه . ولأن وسائل الإعلام في تلك الأيام كانت محدودة و،غير متطورة، فقد حاول الهراوي في شعره الجمع بين التعليم والترفيه.فقد نجد أنشودة بعنوان تحية اللقاء .. يقول فيها:

هل تعلمون تحيَّتي عند الحضور إليكُم

أنا إن رأيتُ جماعة قلتُ: السلاُم عليكُم

وهو هنا يحاول وضع الطفل على الطريق المستقيم والمبادئ السليمة لتحيـة الناس والتعامل معهم. وفي أنشودة تعليمية أخرى يدعو الصغير إلى الحب والألفـة مع غيره.. ويؤكد فيها أن قلوب الصغار قلوب كبيرة عامرة بالحب والمودة ..

لا تظُّنوني صغيرًا ليس قلبي بالصغير

يسـعُ الناس وِدادًا من صغير أو كبير

ويود الشاعر أن يكون إيجابيًا خاصة وهو يخـاطب تلاميذ المدارس .. فيلجأ إلى توجيه أنشودة أخرى تعلم الطفل حروف الهجاء.. أو تقربه حبًّا إليها.. وهذا أسلوب قديم معروف في التراث العربي حيث كان علماء اللغة ينظمون قواعدها وعلومها في أشعار ليسهل حفظها وتفسيرها على عقلية المتعلمين..بل تعدي ذلك إلى علـوم

أخرى غير العربية.. يقول الهراوي:

أبي: امتحِنّى يا أبي في أحرف الهجاءِ

فإنني أعرفُهـــا من ألف ليـــاءِ

وأنت في أولهـــا من ألفٍ وبـــاءِ

ثم ينتقل الهراوي إلى الطفل في حياته اليومية.. وقد كان التعليم في عصر الشاعر صعب المنـال .. وكان الصغير يمكنه أن يجمع بين العلم والعمـل .. ولهذا وجـه الهراوي رسالته بأن العمل شرف وليس حطًا من كرامة الإنسان .. فيقول:

أنا في الصبح تلميـذٌ وبعد الظهـــر نجـارُ

فلى قلـــمٌ وقِرطاسٌ وإزميلٌ ومنِشـــــارُ

وعِلمي إنْ يكُن شرفًا فما في صِنعتي عارُ

فللعلمـاءِ .. مرتبـةٌ وللصنـــاع مِقــدارُ

ولا يغفل الهراوي قدرات الطفل العقلية في مراحل عمره.. وهو في كل مـا يكتب يضع عينيه على أمرين مهمين: الإيقاع السهل والمعنى الذي تحمله اللغة البسيطة .. ومن ذلك ما يصف به الكلب(نلاحظ الإيقاع الذي يسهل معه الغناء واللعب).

كلبي كلبي صافـي القلـبِ

يجـري خلفي يمشي جنبي

راعٍ للأهـلِ وللصَّحـــبِ

صعبٌ عند الأمرِ الصعــبِ

يحمي الأغنـام من الذئـــبِ

وله في الصيدِ.. وفي الحربِ

ولــه في الإسعــاف الطِّبي

وقليـل العيبِ أو الذنـــــبِ

يُغنيه القـولُ عن الضربِ

فلذا.. ولذا أهـوى كلبـِي

إنها ولا شك أغنيةٌ راقصة تصلح للإنشاد مع ممارسة لُعبة معينة.. أو توقيع الأقدام فوق الأرض ضابطة للنغم.

ومع هذا الموقف من الكلب وحب الصغير له فإنه كذلك يكون شريرًا ولهذا سـاق الهراوي هذه الأبيات بعنوان (حيلة):

رمى غلام بكُـرة فاقتربت من شجرةْ

وكان مربوطًـا بها كلب يخـافُ ضرَرَه

فدار حول جذعهـا والكلبُ يقفُو أثـره

فقصَّر الحبـل به وعاد يأخُذ الكُـرة

وتبدو هنا قدرة الهواري على شرح الموقف وتبسيطه وتكثيفه أيضًا في كلمات قليلـة دون تطويل أو إسهاب.. ولو شئنا كتابتها نثرًا..ربما زادت على سطور هذه الأبيات .

أما في حب الوطن فللهراوي الكثير منه:

مصـر أمنـا حقُّهـا وجـبْ

تـرْب أرضهـا يُنْبـتُ العجـبْ

مـاءُ نيلهـا سائـلٌ ذهـبْ

بيـن أمِّنـا والعُـلا سببْ

وأيضا يتحدث عن شعب مصر وعراقته وحضارته فيقول:

يا ابن مصرٍ.. يا عـريق النسبِ

قد دعا داعي العُـلا فاستجـبِ

واطْو في الجـدّ بساطَ اللَّعـبِ

واطلب العزةَ تحـت العلـم

قد نزعنـا للمعـالي منزعـا

وتسنَّمنـا المكـان الأرفعـا

قلْ لشمس الأفْق: أخْلى موضِعا

لبنيِ النيـلِ .. بنـاةِ الهـرمِ

وإلى جانب هذا يتنقل الهراوي خلال المشاهدات التي يراها الطفل هنما وهناك، فهو يتحدث عن الحيوان والطيور التي يتعامل معها الطفل.. ووسائل النقل المختلفة مثل السيارة والدراجة والطيارة والترام.. والآثار المصرية مثـل الأهرام وأبي الهـول، والآثار الحديثة مثل دار الكتب بل يدخل مع الفتاة إلى المطبـخ.. ويذهب معها إلى

المدرسة .. إلى غير ذلك مما تتعدّد جوانبــه ولقطاته في إيقاعات سلسلة بسيطة، وكلمات قريبة إلى الفهم.[19] ومن ذلك مثلاً ما نظمه في وصف الدراجة:

دراجة من عجـلِ تمشي بدفع الأرجُـلِ

محكمِــةُ الرّباط منفوخــة المطــاطِ

فيها جهــازُ النور وجــرسُ المسيـــر

تفرُّ وهى جاريــة ولا تفــرّ راسيـــة

تـدُل أن البركــة تحلُّ عند الحـــركة

وكتاب (الطفل الجديد) للهراوي.. طريف في أناشيده ومقطوعاتـه .. إنه يصـحب الصغير وذكرياته ..وحياته اليومية.. ومن هذا ما قاله على لسان الصغير يصف حاله بين الطفولة والصبا:

حينما كنتُ وليـــدًا لم أكن أنطقُ حرفًـــا

إنمـا كــان مُـــرادي في سكوتي ليس يخفي

كنت إن أبصرتُ أمي أقبلتْ.. أبسُـطُ كفـــا

وأبى إن جاء عـندي لم أحـــوِّل عنه طرْفا

وابتسامي كان عطفًا للذي يُظهر .. عطْفـا

[19]- قام المؤلف بتحقيق ودراسة أعمال الهراوى للأطفال (25 عملا) لأول مرة صدرت أخيرا عن المركز القوى لثقافة الطفل بالقاهرة.

وأنا . الآن . صبـيٌ أستطيع القول صِرْفـا

فأحيّــى بلسانــي صاحب المعروفِ ألفا

على حين نجده يتحدث بلسان الصغير أيضا وهو يلاعب طائرهُ فيقول:

الطائــرُ الصغيرُ مسكنه فـــي العش

وأمُـــــه تطيــرُ تأتـــي لـــه بالقش

تخالُـه .. الطيـورُ إذا بدا في الفـــرْشِ

كأنــه أميـــــرُ يجلس فـوق العرشِ

وهكذا يضيف الهراوي الكثير إلى ميدان شعر الأطفال .. في أشكـال كثيـرة منها الأغنية ومنها القصيدة ومنها المسرحية.. مما يجعله أكثر الذين فهموا عقلية الطفل فقدموا له ما يلائمها.. بقصد التعليم في صور ورسوم توضيحية مع كل قصيدة أو أنشودة.. كما لا يفوت الهراوي أن يربط الطفل بعقيدته الدينية ولهذا أفرد له ديوانًا خاصا هو أنباء الرسل، وقد بدأ في إصدار أعماله عام 1922، وظلت ضمــن ما يقدم لتلاميذ المدارس حتى عهد قريب ..

وبهذا نستطيع أن نقول، إن الهراوي قد نجح إلى حد كبير في الوصول إلى عقليـة الصغير محاولاً غرس المعرفة والجمال والموسيقى جميعًا.. ولو كان شعره قد خلا من كثير من التقريرية . المقصودة . لكان دستورًا لكل من يريـد أن يكتب شعـــرًا

للأطفال.

محاولات أخرى:

عاصر الشعراء السابقين بعض الكتاب الآخرين، الذين جمع بعضهم بين النثر والشعر وبعضهم كتب شعرًا خالصًا .. ومن أبرز هؤلاء رائد أدب الأطفال (كامل كيلاني) .(1897 . 1959).ويرجع الفضل إلى كامل كيلاني في كتابة القصة للأطفال.. أكثر من كتابة الشعر.. فقد استطاع أن يمّد الطفل بأول مكتبة عربية عنيت بتنشئته على أسس التربية الصحيحة.. فألّف وترجم.. وبسّط كثيرًا من الأعمال.. إلى جانب كتاباته للكبار..وحاول كامل كيلاني أن يكتب شعرًا مبسطًا للأطفال.. أحيانًا يضعه في ثنايا قصصه في صورة مقدمات.. أو نهايات.. يقصد منها تربية الطفل وغرس القيم الاجتماعية والدينية ومنها:

أنا ما زلت تلميذًا صغيرًا
ولكني على صِغَري مُجِدُّ..
أسيرُ إلى العُلا سيزًا حثيثا
وأنشطُ نحو غايتها وأغْدُو
وليس بنافعي طولٌ وعَرضٌ
إذا لم يُغْنني فهمٌ ورُشْدُ
فليس يقاسُ إنسانٌ بشبْر

ليعـرف قـدره إن جدَّ جِد

ونبْتُ القمـــحِ مرتفعٌ قليلاً

ولكنْ .. هل له في النفـع حدُّ

هو القوتُ الذي نحيا جميعًـا

بهِ .. وهو الذي ما مِنْـــهُ بُدُّ

كما أخرج كامل كيلاني قصائـد تثير في نفس الصغير كثيـرًا من المعاني النبيلة.. التي تُغذي الوجدان حتى في أوقات لعبه..ومن ذلك ما كتبه تحت عنوان (لا أحد) يقصد بها هذا اللفظ الجاري على ألسنـة الأطفال عندما يعبثون بشيء في المنـزل ويحطّمونه أو يشوهونه.. وتسألهم الأم: من فعل هذا. فيجيبون..في بساطة: لا أحد .. وقد وفق كامل كيلاني إلى التعبير عن هذا الموقف حين قال:

شخصُ غريبٌ تسمعون دائمًا به.. وإن لم يرهُ منكم أحـدْ

ولست أدري أبدًا: ما شكلُـهُ وكم له من معجـزات لا تُعدُّ

أما اسمهُ: فهو غريبٌ عندكُم تعرفُه كلُّ فتـــاةٍ .. وولـدْ

فإن سألـتُ: ما اسمُــه؟ فهو يسمـــي: لا أحـــــد

إن تُركـت أبوابُنا.. مفتوحـة أو طار من نافذة زجاجهـا

أو خُلعـت أزرَّةٌ من مَلـبسِ أوضَاعَ من آنيةٍ غطـــاؤُها

أو بُعثرت من مكتبٍ أوراقُـه أو سال من محبـرة مدادهُـا

ثم سألنـا: من فعــلْ.؟ كان الجـوابُ: لا أحـدْ!

وهكذا يضع الطفل أمام مواجهة حادة مع هذا السلوك..ويسخر منه إذا هو لجأ إليه ، ومن أبدع ما كتبه كامل الكيلاني تلك المقطوعة التي تسمى (الوقت) ومنها:

قالت الطيرُ: لقد حلَّ الشتـاءْ

واستبدَّ البردُ واشتدّ الصقيـعْ

فوداعا: أيها الغصنُ وداعًـا

سوف ألقاك إذا جــاء الربيعْ

قالت الأوراقُ للغصن: وداعا

أيها الغصنُ . فقد حـلَّ الشتاءْ

سوف ألقاك إذا ما الطيرُ عادتْ

في الربيع الطلق تشدُو بالغناءْ

ثم قال الوقت للناس: وداعـا

إنني أنفسُ شيءٍ في الوجـودْ

ترجعُ الأوراقُ والطيرُ جميعًا

وأنا من حيث أمضِى لا أعـودْ

وله أيضا قصة شعرية عن الأرنب.. وأخرى عن الغراب..وثالثة عن عنقود العنب، حتى أنه صاغ جزءًا من قصــة شكسبير (الملك لير) شعرًا مبسطًـا للأطفال .. وكما يتضح حاول كامل كيلاني أن يجمع بين القصة والشعر..ولكنه كان يميل إلى

كتابة القصة.. وما أظنه كان يكتب الشعر إلا هامشيًّا.

ومنهج الكيلانى في الكتابة للطفل يقوم على أسس ثلاثة:

أولها: تشويق الطفل وتحبيبه في الكتاب.

وثانيهما: تجنيبه الخطأين: اللفظى والمعنوى.

وثالثهما: التدرج به من مستوى إلى آخر.

أما الشاعر **(إبراهيم العرب)** فقد أصدر كتابا بعنوان(آداب العرب) عام 1911، أي قبل وفاته بستة عشر عامًا (توفي 1927)وقد نظم فيه تسعًا وتسعين قصة شعرية. منها ما هو على لسان الحيوان..وقد جاء في مقدمة (آداب العرب) :

"هذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب.. وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة، ليأخذوا منها ما يربي نفوسهـــــــم ويقـوِّم أخلاقهـم ويطبعها على أصـوب آراء المتقدمين.. إلخ". وواضح من هذا التقديم أن إبراهيم العـــرب يلتـزم جانـب المثل والحكم المأثورة على أفواه الحيوانات.. أي أنه قصد الجانب التربوي قبل أي شيء .. ومن قصائده تلك ما أطلق عليها: (وحش الجبل والطيور) يقول فيها:

حكاية عن غنيّ مالـــه عملٌ

حبُّ التظاهرِ في الدنيا لـه شغلُ

بدا له أنّ دعوى العلم رائجـةٌ

منه إذا بـات للآداب ينتحــلُ

فأحضر الكتْبَ لا علمٌ لديه سوى

أن الكتــابَ خفيفٌ أو به ثِقَـلُ

وصار يحضر أهلُ العلم ساحته

على موائدَ .. فيها السمنُ والعسـلُ

ومن عوارفه لا من معارفِـه

صارت تُصبُّ على راحاتـه القُبَلُ

ولا معارض منهم إن بدا خطأ

ولا مجادلَ فيهـم إن بدا خَطَـلُ

ويرجعون إليه في العلوم وما

لديه من كأسها نهـلٌ .. ولا عَلَلُ

وبالتملقِ قالوا لم نجــد أحدًا

جاراك في العلم حتى النُخْبة الأولُ

فصار يعجبُ كيف المالُ أبلَغَهُ

تلك المكانة والجهـالُ لا تصـلُ

ويبدو أن كتاب (آداب العرب) لم يستطع المؤلف أن يتحرّى شيئا من البساطـة إلا قليلا مما يصلح لأن يقترب إلى إدراك الأطفال.. ومع هذا فقد أصدرتــه نظـــارة المعارف المدرسية . أيضًا . وقررتــه في المدارس الابتدائيــة بنين وبنـــــات وفي

مدارس المعلمات السنية ومدارس معلمي الكتاتيب.

* * *

وفي عام 1940 . أصدر (جبران النحاس) ديوانه (تطريب العندليب) وتضمن سبعًا وتسعين قصة شعرية مأخوذة من أمثال لافونتين.

أما الشاعر محمود أبوالوفا (1902 – 1979) .. فقد كتب للأطفـال أناشيد وطنية ودينية .. كما كتب بعض القصائد التي تتحدث بلسان الحيوان وتعطى الحكمة والقيم العليا.

وفى رأى أبى الوفا: أن الفرق بين النشيد والقصيد، أن الوحـدة البنائية في النشيد لا تعنى البيت، كما هى في القصيدة التقليدية أو التفعيلة العروضيــة – كمـا هى في اصطلاح بعض معاصرينا– وإنما تعنى الشطرة ولك أن تسميها البيت ..ولهذا فإن النظام التركيبى في النشيد يشبه النظام الأسرى .. إلخ.

ومهما يكن .. فإن أبا الوفا أجهد نفســه في كتابة الأناشيد للأطفال رقيقة النغم .. حماسية الأداء .. وحاول أن يعطى الصغير موضوعات أقرب إلى إحساسه وحياته الخاصة. فمثلا يكتب نشيدا عن (كرة القدم) فيقول:

كرةُ القدم كرةُ القـدم هى لعبتنـا منـذُ القـدمِ

يابن النيلِ يابن الهرم العبْ العب كـرة القـدم

للكرة نــداء يُشجينا ويطيرُ بنا صـوبَ الهَدف

وكأنّ صَداهُ ينادينـَا سيرُوا سيروا نحو الشرفِ

في العالم نحن لنهضتنا أصحابُ الرايـة والعلـم

ومتى كنا في ساحتهـا كنا الحـراسَ على القيـمِ

ومن الأناشيد الدينية يكتب للصغير (دعاء الصباح) فيقول:

يـا إلهى يـا إلهى يا إلـــــه العالميـن

يا إلهــى لك أدعو استجبْ لى يـــا إلهى

أعطنى القـوة حتى أجتلى الســرَّ الإلهى

ليكن وجهُك وجهـى ليكن جاهــك جاهى

ليكن نــورُك قُدَّا مِيَ فــي أيِّ اتجـــاه

فإذا الكـون أمامى كلُّــه نـــــورُ إلهى

وإذا أبصـرت لم أبـ ـصرْ سوى الحبِ الإلهى

يــا إلهى يـا إلهى يــا إلهى يــا إلهـــى

محاولات حديثة جدًّا من شعر الأطفال

أحدثت المتغيرات التي سادت المجتمع العربي في النصف قرن الأخير.. تطورًا في كل شيء.. وعلى صعيد الأدب.. ظهر لون جديدة من ألوان الشعر الحر، أو الحديث، يتحرر من قيود القافية، لكنه يلتزم إيقاعات موسيقى الشعر الذى قال بها الأقدمون.. رغبة فى الوصول إلى المتلقى المعاصر ..وصاحب هذا التطور تطور، آخر فى الرؤية وأيضا في اللغة.. باعتبارها كائنًا حيًّا.. يتطور وينمو ويضاف إليه ويتخلص من شوائبه على مدى الدهور..ولأن اللغة العربية . من بين لغات العالم . تتميز بثرائها .. وتعدد مفرداتها ومترادفاتها .. فإن الكاتب الذي استوعبها لا يقف عاجزًا أمام الوصول إلى أي مستوى عقلي .. حين يريد أن يختار له المستوى المناسب في اللغة.

لكن الأمر قد يفهم على العكس..حين ينظر إلى تبسيط اللغة على أنه طريق ممهد للعالمية أو لمايسمى باللغة (الثالثة).. وفي هذا أيضا ظلم لطبيعة وشخصية اللغة العربية .. التى تستوعب وتعبر بقدرة وكفاءة فى كل ظـــــرف وإلى أى مستوى إدراكي.

وفي رأيى أن التبسيط في اللغة سمو بها، وليس انحطاطًا أو إحداث لغة ثالثة، وهو سهم يحسب في جانب اللغة وليس ضدها. لهذا آمن كثير من شعراء الشعر الحر.

.

بضرورة فتح آفاق جديدة لهذا اللون في مجال الدراما الشعرية.. والملحمة الشعرية ..وأيضا الكتابة للأطفال بالشعر .وما يهمنا في هذا المجال ما حاول الشعراء كتابته للأطفال بهذا اللون الجديد.. وهل استطاعوا أن ينفقوا على لغة مشتركة في هذا المجال.

ولا أود هنا أن نحكم مطلقا على ما قدم للطفل بهذا اللون .. لأنها محاولات . وإن كانت مخاصة حقًّا . لكنها .. لم تصبح تيارًا أو ظاهرة أدبية..وليس أمامنا الآن إلا أن نعرض لبعض هذه المحاولات بتعليقات حذره .. مجتهدة ..

محاولات سورية:

تجيء في مقدمة هذه المحاولات ما كتبه الشاعر السوري (سليمان العيسى).. فقد كتب ديوانًا من الشعر للأطفال إلى جانب مسرحيات غنائية كذلك. ونجد الشاعر نفسه يعترف من البداية أنه تعمد الرمز والصعوبة في الألفاظ.. والغرابة في بعض الصور . بما يفوق إدراك الأطفال.. وقد تعمد ذلك كله . في رأيه . لإيمانه بقدرة الطفل على الالتقاط.. والإدراك بالفطرة.

وأعتقد أن الشاعر سليمان العيسى هنا يحاول أن يصحح مسار الكتابة للأطفال.. الأمر الذي يمكن أن يكون مقبولاً ومؤثرًا إذا لم يقصد الشاعر إلى ذلك قصدًا . أعنى الصعوبة والغموض . وإذا لم يتذكردائما أنه يكتب من وراء أعوامه التي

قاربت الستين ودواوينه الاثنى عشر ومسرحياته الأربع.. وخبرته اللغوية القــادرة. لقد كان حل المعادلة . داخل وجدانه . صعبًا متعنتا..فهو يريد أن يصل إلى وجدان الطفل الذي لا يمتلك خبرة لغوية أو خياليــة عالية.. وهو أيضًا يريد أن يرتفــع به إلى مستوى الرمز في الشعر . لغة ومضمونًا . لكن هنـاك ظلاً آخر انسحـب على معظم أعمال سليمان العيسى هو ارتباط أشعاره . في معظمهـــا . بمفاهيـم وطنيـة ترتبط بأحداث خاصة إقليمية ومعنويات تفوق إدراك الطفل المعاصر بكل المقاييس . فهو يتحدث عن البندقية وأحلام التحرر.. والنضال المستمر.. والمستقبل العربي. كما تكثر لديه..الحواشي في صفحات الدواويـن لتفسيـــر المعني أو المفـردات.. لكن ذلك كله لم يقف دون تقديم عدد من النماذج الجيدة التي استطاع بها أن يوازن فيها الإيقاع مع اللغة . نسبيًا . وتصل إلى الطفل دون مجهود كبير..

في إحدى قصائده يقول سليمان العيسى:

القُبلة الأولى مع الصباح

لجبهة الفلاح

لساعد الفلاح

للسَّاعد المفتولْ

تحيةُ الحقول

تعطيه ما يشاء من ثَمَر

من غلة كدفقة المطَر

وتضحك البلاد

لموسم الحصاد

ويسْعدُ البشر

وهذا نشيد كتبه في نهر (بردي):

بردي بردي نغمٌ وصدى

ظلٌّ وندى عذْبٌ أبدا

من جناتِ السطح الأسمرْ

يولد شلالاً من عنْبر

في شفتيه لحنٌ أخضرْ

وبخدَّيه.. ضحك المرمرْ

وفي مقطوعة (سوار شعلة) يقول:

كان لنا جيرانْ

وقريةٌ تمورُ بالألوانْ

بالماء بالأطيار بالشجرْ

وذات يوم غارت القريةُ في الضباب

وصار بيتُ جدك الحبيبْ

يحتلُّه مستوطنٌ غريبْ

على حين كتب ما أطلق عليه(أناشيد للأطفال) تتسم بالعذوبــة والإيقاع السريع

الراقص، ومن ذلك قوله:

قالت ربابُ: أنا ربابْ

العشْب أزهرَ والترابْ

عصفورةُ البيت الصغير.

وقبلةُ النور المذَابْ

نغمُ الصبْاح..

والدار أقبلها أنا

دنيا مراح

قالت ربابُ: أنا رباب

أنا زهرة بيدي كتاب

ويكتب على لسان صغيرة تسمى (تيم) أنشودة راقصة أخرى.. فيقول:

الرمل الناعم بين يدي

وأنا ألعبْ

أبني بيتًا وطريق غد

أبني ملعبْ

اسمي من ديوان العربِ

اسمي: تيمْ

اثنان نرفرفُ: قال أبي

أنا والغيْم

ياموج الشاطئ ياأزرق

افرحْ وامرحْ

في الشاطئ زغلولٌ صفَّق

وأتى يسبحْ..

ويتضح من هذه النماذج محاولة الشاعرالوصول إلى ذهن الطفل ووجدانه،مستخدما خبرته وحبه للشعر والطفل معا.

أما مسرحياته الشعرية للأطفال فهى محاولات رمزية في الوطنية والكفـــاح العربي، يمتزج فيها الشعر التقليدي بالشعرالحديث.وتقف مع ذلك مثلاً فريدا في هذا المجال.

أما **(خليل خوري)** من سوريا كذلك فقد التزم قضية فلسطين.. فجاء شعره توجيهيًّا في إيقاعات عذبة.. وهذه قصيدة له بعنوان:

(رسالة إلى أطفال فدائي في العيد) يقول فيها:

أحبائيَ: عيسى .. هند .. ميسونُ

أُسامهُ .. قيسٌ .. مأمونُ

إذا لم يأت بابا ليلة العيد

فليس لأن بابا قد سلاكم يا أعزائي

***

وبابا الآن منهمكُ يُعدُّ هدية كبرى

لأعينكم: هديتكم .. فلسطين.!

وهى قصيدة كما نرى تلتزم الخط الوطني؟؟ وتدخله إلى وجدان الطفل، حين تربطه بمناسبة طيبة للأطفال هى مناسبة العيد..

ولمحمود السيد الشاعر السوري أيضا .. نقرأ في مقطوعته (أربع لوحات):

لأنيَ ريح ..

حملتُ بثوبي حبوب اللقاح

وطُفت بها الأرض دون ارتياح

ودون مديح ..

لأني نهار

صفعتُ بسوطي جموع الكسالي

وقلت جهارا

دعوا الاتكالا

تصيروا كبارا

والملاحظة في التجربة السورية أن الشعراء ينوعون في تجاربهم وإن كانت مساحة الشام وأحداث فلسطين مادة يقدمونها وينحازون إليها.. ويجعلون الطفل يتعايش معها .. كما نلاحظ أن اللغة لديهم أيضا تتراوح بين الصعوبة والسهولة .. وقد نجد بعض الغموض في المعنى .. لكننا . رغم كل ذلك . أمام تجربة مهمة في شعر الأطفال شارك فيها أجيال مختلفة من الشعراء المعاصرين.. من أمثال:

سليمان العيسي . شوقي بغدادي . خليل خوري . حسيب الكيالي . أحمد الجندي .

حامد حسن . نصوح فاخوري .. وآخرين.

محاولات عراقية:

وبين يدي الآن تجربة حديثة في (العراق) قامت بها دائرة ثقافة الأطفال في بغداد.. وهى تتمثل في إصدار سلسلة شعرية لأعمال الطفل المختلفـــة، وبأقلام شعراء متحمسين لتجربـة شعرالأطفــال عراقين.وغير عراقيين منهم عبد الرازق عبد الواحد . وبيان صفدي . وجمال جمعة ... بل اتسع نطاق التجربة ليكتب فيهـا سليـمـــان العيسى . أيضا . وكريمة العراقي . وتركي كاظم جـودة . وغازي الفهد .

وحسن عبد الحميد ناصر . وفالح حسين . وهادي ياسين على . وغيرهم كثير.

وواضح من التجربة أنها صدرت من واقع دراسة واقعيـة إلى حد كبير لاحتياجات الطفل الوجدانية وهى في معظمها أقاصيص شعرية بعضها تحكـي عن الحيوانات والبعض الآخر مستمد من القصص العالمي، فمن هذه التجربة ماكتبه (عبد الرازق عبد الواحد) بعنوان (الطفل والفراشة):

رأيت ذات مــرة فراشـــة ملونـــة
كأنهـــا لحسنها من ذهـب مكونـــة
من زهرة لزهـرة تطيـر وهى حالمـــة
تحملها أجنحـــةٌ مثل الحريـر ناعمة
وبينما كنـــا معًا في فـرَح نرقبهـــا

إذا بطفل هائــج بمضـرب يضربهـا

فأفلتت من يــده لكن هوتْ فوق الثَّري

وقبل أن يلحقَهـا أجمـلُ مشهد جـرى:

كان أبـوه واقفًـا فهب كـى يدركهـا

محتضنا صغيـرَهُ قبيْـل أن يمسكهـا

صاح الصغير باكيًا أريدهـا يـا أبـتِ

لكنْ: أبـوهُ ضَمَّـهُ إليــه في محبّــة

قال له يـا ولـدي أعلـمُ كـم تحبُّهـا

لأنهـا جميلــةٌ جميعنــا نحبهــا

لكنهـا رقيقــةٌ تقتلهـا لـمسُ اليـد

أنقتل الشيء الـذي نحبُّـه يـا ولـــدي

فوقف الطفلُ ومـا مــدَّ إليها أصبُعَـه

وحين طارت مـرةً أخرى رأينـا أدمُعـه

وكان يرنـو وأبـوهُ فرحًا يرنُــو معـــه

هكذا ببساطة شديدة تحكي قصة بالشعر في كتيب مقوى، لا يزيد عن ست عشرة

صفحة فقط، كل بيتين في صفحة مصحوبين بصورة معبرة.

وفي قصيدة أخرى بعنوان (البحار الصغير) يقول الشاعر عبد الرازق عبد الواحد أيضًا:

أنـا فتى بحَّـــــار تسحرني البحــار

أحبُّهــا لأنهـــــا تملؤُهـا الأسْـرار

تلمـعُ في قيعانهـا اللآلـئ الصَّغـار

والسمـك اللَّمـــاع والمرجـان والمحار

أحبهـــا لأننـــي تبهرنـي الأسْفَـار

السندباد في دمـي والموج والأخطـار

وقد رأيـت زورقًا يحضنــه العَشَّـار

كقلعـة يحوطهـا الجــلاُل والإكبار

ثم تهـادت خلفـه قلاعُنـا الكبــار

عرفتهـا فإنهـــا أسطولنـا الجبَّـار

وظل طيف السندباد في دمــي يُثــار

الله لو أنـــي بـه محـاربٌ مغْـوار

حيث يسيرُ زورقــي تلتفـتُ الأنظــار

يخشى العدو صولتي والموجُ والإعصار

الله لــو.. الله لــو لــو أنني بحـــار

ولاشك أن العذوبة هنا والقدرة والسيطرة على القافية لا تجيء إلا من شاعر متمكن يطوع اللغة والتعبير كما يشاء.

وهذا ديوان آخر بعنوان (أغلى كلمة) للشاعر (بيان صفدي) يتضمن قصائد شعرية عن القمر والنخلة . والوطن . والأمير والحطـاب . نختار منها هذا النشيد بعنوان (ضيوف القمر):

قمرٌ غالِ

للأطفال

كم غنينا .. لك يا قمرُ

تحت ضيائك طاب السهرُ

افتح بابك .. إنَّ صحابك

جاءوا الآن فهم زوارُ

ولهم عند حدودك دارُ

جئنا .. جئنا .. فاستقبلنا

واقبل باقة ورد منّا ..

كما تتضمن هذه التجربة ديوانًا اشترك فيه مجموعة من الشعراء. نختار منها هذه

الأنشودة البسيطة بعنوان (أرجوحة):

أرجوحتي .. مكانها

ما بين فرعيْ شجرة

وعاليا تأخذني ..

حيث الغصونُ النضرة

أشاهدها الأنهارْ

والروض والأطيار

وأجمل الأزهارْ

وفي طريق عودتي ..

تقول لي صديقتي:

تعال يا نزار

نباركُ النهارْ

بفرحةِ الصِّغار

أرجوحتي رمزُ الفرحْ

ألوانها قوسُ قزح

كما قدمت دار الثقافة أيضا تجربة أخرى .. من خلال أشعـار شوقـي التي كتبها للأطفال،أعدها (فتحي خليل) الذي جمع فيها بين الشعر والنثر.. فقد بدأ كل قصـة شعرية على ألسنة الحيوان.. بنثرها وقَصِّها... أولا . ثم أفرد صفحتين للكلمات التي

يمكن أن يجد الطفل فيها صعوبة، وأثبت معناها(مصورا)ثم بعد ذلك أثبت القصيدة، أو القصائد . مصورة على طول الكتاب.. ثم أنهى الكتاب بنبذه عن الشاعر أحمد شوقي وصورة شخصية له[20].

وأعتقد أن هذا العمل بهذه الصورة يجمع بين كثير من المميزات.. فهو يعرف الطفل بالقصة . نثرًا . ثم يعرفه على الكلمات الصعبة ومعناها .. فيكتسب بذلك حصيلة لغوية يضيفها إلى معجمه الخاص.. ثم يقرأ (شوقيا) في قصيدته كما هى.. ثم يعرف أخيرًا من هو أحمد شوقي الذي أمتعه طوال هذه الصفحات.

ويبدو أن أشعار أحمد شوقي قد أغرت الكثيرين (بنثرها) في كتيبات مستقلةللأطفال منذ سنوات طويلة في مناطق متعددة من الوطن العربي.. وبين يدي سلسلة بها خمسة وعشرون كتيبًا للأطفال، صدرت في (ليبيا) تحت عنوان عام هو:(قالت الحيوانات يا أطفال) ويبدو أن هذه الطبعة . غير مؤرخة . تسبق تجربة العراق والتجربة المصرية . إذ عمد مؤلفها . الدكتور محمد التونجي إلى سرد القصة الشعرية نثرًا على طول الكتاب.. ثم أثبت القصيدة الشعرية في صفحة واحدة هكذا: (قال الشاعر أحمد شوقي): ثم ترد القصيدة بأكملها التي سردها نثرا . مع بعض التصرف والخيال القصصي . على مدى صفحات الكتاب..

[20]- صدرت عن الهيئة العامة للكتاب نفس الفكرة عن أشعار أحمد شوقى من إعداد الكاتب عبدالتواب يوسف .. وإن كانت تتسم بالعجلة فى إخراجها .. إلا أنها لا تختلف كثيرا عن التجربة العراقية .. كما قدمها مسرح الطفل بالقاهرة من إعداد شوقى خميس وإخراج هناء سعدالدين (موسم 1987).

التجربة المصرية:

آن لنا الآن أن نتساءل عن التجربة المصرية .. هل لعب الشعراء المحدثون دورا في أدب الطفل .. أم تراهم تخلفوا عن ذلك؟!

وابتداء أعترف – كواحد ممن يكتبون الشعر الحر – أن هذا اللون الذى نكتبه يمكن أن يكون إيجابيا لو أخلصنا إليه كشعراء .. لكن ما دمنا نستهين بهذا المجال – وهو مجال شريف لا يقل أهمية عن أي مجال آخر – فلن نضيف شيئا.

ولحسن الحظ .. يستجيب لدمعة الطفل المصري شعراء كثيرون .. حاولوا الكتابة للأطفال سواء بالشعر التقليدي أو الشعر الحر .. وكلهم متحمسون رغبوا في فتح آفاق جديدة في قلعة الشعر الحصينة.. [21]

- **عبدالعليم القباني:**

هذا شاعر سكندري متعدد الاهتمامات والعطاء .. باحث مجتهد وشاعر له مذاق متميز بين الشعراء العموديين ..

أصدر القباني أخيرا ديوانا للأطفال بعنوان (قصائد من حديقة الحيوان) وهى كما يدل العنوان الجامع تتناول سلوكيات الحيوان .. في مقطوعات صغيرة من عدة أبيات .. يخرج الطفل بعدها بقصة قصيرة أو موقف وأيضا بحكمة نافعة.

---

[21]- أجرى أخيرا مركز أدب الأطفال بدار المعارف مسابقة فى شعر الأطفال، وتقدم إليها بعض العاملين بالتربية والتعليم .. وكان المستوى معظمه ضعيفا لأنه غلب عليه النظم الخالى من روح الشعر الذى يقترب من وجدان الطفل .. ومع هذا وضعت المقاييس على ما قدم لا على ما يجب أن يكون !! ومما يؤسف له أن المسابقة قصد لها ألا تأخذ حظها فى الإعلان لكى يحتجب عنها شعراء لهم تجارب حقيقية فى هذا المجال.

ومن هذه القصائد قوله:

طاول الثعلب يوما أسـدا إذ رآه يتنزى فـي القيـود

قال يا أضعف سكـان الفلا همة .. كيف على الغـاب تسود

أنت ما أنت .. إذا قيس الألى شرفوا الأدغال من حمر وسود

وتمـادى يشتم الليث فمـا تفلتُ الآبـاء منـه والجـدود

وإذا بالليث يُلقـى نظـرة صورت معنى من الحكم السديد

(لست يا ثعلب من يشتمنـى إنمـا يشتمنى هذا الحديـد)

إن الشاعر هنا يحاول أن يستحدث موقفا .. ويضيف معنى.. ويؤكد على مفهوم الحرية ويرمى بالغرور والتكبر ..وفى قصيدة أخرى يقول:

على الأغصان عصفورُ صغير السن معـرورُ

رأى في الحية الرقطا ءِ حُسنا .. فهو مسرورُ

وما يدرى بأن السُّـ ـم تحت النـاب مستورُ

وأقبل نحوها يسعى فنادتـه العصافيـر

تحذره مـن الأفعى فإن حنـانهـا زورُ

فلم يعبأ بما نصحتْ وللأوهـامِ تأثيـر

وغنى حولها طربًا فأمسى وهـو مقبـور

ومن يغتر بالأوهام تُهلكـــه المقاديـــر

وهى صياغة أخرى في نفس المعنى السابق ..

أما الشعراء الذين كتبوا بالشعر الحديث فهم كثيرون .. ويجيء في مقدمـــة هؤلاء الشعراء: سمير عبدالباقى، أحمد الحوتى، أحمد زرزور، وحسين على محمد وكاتب هذه السطور.

أما **(سمير عبدالباقى)** فهو إلى جانب أنه شاعـــر جيد .. فهو يكتب العامية .. ويكتب قصصا نثرية للأطفال ومسرحـــا للطفل .. ودخل أيضا إلى ساحة الشعـــر ليقدمه في بساطة وقدرة للأطفال..وما يهمنا بالقطع ما قدمه سمير عبدالباقي مـــن قصائد أو حكايات شعرية للأطفال .. وفى اعتقادي أنه استطاع أن يضع يده على المفاتيـــح الحقيقية – غالبا – للوصول إلى وجدان الطفل .. فقد تنوعت قائده بين الطبيعة واللعبـــة والطيـــور والحيوان

والوطن .. والتراث الشعبى جميعا. وبهذا يحاول أن يجعل من الطفل مثقفا صغيرا .. ومن حقنا الآن أن نقتطف من أعماله هذه النماذج (الشمس والأطفال):

يا شمس يا صديقة الإنسان

والنبات والشجرْ

يا منبع الضياء والنماء

يا مضيئة القمر

من أول الزمان

أنت نعمةُ السماءِ للبشر

وزهرةُ الحرية

يا شمسنا العربية

من أقدم العصور أنت أجمل الزهور

أنت غُنوة المطر ..

وفى قصيدته (على الأرجوحة) يبدأها هكذا:

على أرجوحتي أعلُو

تدور برأسي الأفكارْ

أرى نفسى أطيرُ .. أدور

كأنِّى طائرُ الوروارْ

أسابق نحلة العسلِ

أزور الوردَ والأزهارْ

وأعلو مرةً أُخْرى

كأنى طائرٌ جبَّار

وحينما يريد أن يدل الطفل على (ألف ليلة وليلة) .. يقول:

في ألف ليلة وليلة رجال:

من يمتطى الخيول

أو يركبُ الأفيال

ومن يطير فوق ومضةٍ من الخيال

أو فوق بارقِ الشعاعِ

أو عواصفِ الرياح

وبعد أن يشرح له – بهذه السلاسة والمتعة– كثيرا من شخصيات ألف ليلة يقول له محفزا إياه على قراءة هذا التراث العظيم:

لو عشت يا بنى ليلةً بألف ليلة

تكون قد خُلقت من جديدْ

تحسُّ عندما تعودْ

بأن حلمك البعيدْ

أن يصنع الرجال للأطفال عالمًا سعيدا!

والميزة هنا أن الشاعر متنوع في التقاط قصصه ومواقفه وموضوعاته التى يقدمها للطفل، ولأنه يمتلك القدرة على تفجير اللغة .. فهو حريص على تقديم اللغة مشبعة بالمعنى والخيال معا، حتى تصيب الصغير المتعة والمعرفة معا .. وهذه ميزة

تحسب إلى جانب الشاعر ..

- **أحمد الحوتى:**

أما أحمد الحوتى شاعر أصدر أعمالا شعرية في دواوين .. وهو يكتب العامية كذلك والمسرح إلى جانب الشعر .. ومن أعماله الشعرية التى كتبت خصيصا للأطفـال تلك المجموعة التى أسماها (الورد والشجرة)..

وهى أشعار على لسانه هو كصديق صغير يتحدث مع أصدقائه الصغـار كذلك ..

ويبدأ معهم من لحظة التفتح على الكون – لحظة الحب– حب الناس– ثم يأخذ بيدهم عبر الشوارع والطرقات، ويلتقط لهم مواقف وحكايات، ما كان يجب أن تحدث لو أن كل إنسان أخلص في عمله وحبه للناس ولبلده .. ولكى تكتمل الصـورة .. ساق لهم كذلك مواقف وحكايات من يخلصون في عملهم .. ومن يحبون بلدهم .. ثم نجده مثلا يدعو الصغير ليس فقط للحب .. ولكن لتقدير كل فعـل ولو كان صغيــرا .. واحترام كل إنسان ولو كان ملونا أو ينتمى إلى طبقات فقيرة، فالناس سواسية خلقوا من بطن واحدة ..فمثلا يقول في (حكاية المصباح المكسور):

لنا صاحب ..

ينير الليل في الشارع

ويسهر تحته الأطفال كلَّ مساء

هو المصباح ..

والمصباحُ حين ننامُ يرعانا

ويملأ نومنا أفراح

ولكنى وجدتُ صديقنا الليلة

حزينًا ..

كان مكسورًا

ولم يسهرْ مع الأطفال

وحين ننامُ لن يحكى لنا الأحلام

حزنتُ لأن صاحبنَا .. حزينٌ هذه الليلة

سألتُ أبى .. فأخبرني .. بأن صديقنَا ممدوح

رمى الفانوسَ بالأحجارِ والطوبِ

فكسَّره ..

ولنْ يحكى لنا الأحلام

وقال أبى: سنُصلِحُه

لكى يحكى لنا الأحلام

وقال أبى: هو المصباحُ في الشارع

صديقُ الليل والأطفالِ

فلا تكسرْه يا ولدى

فحين ننامُ يرعانا .. ويملأ نومنَا أفراح ..

لا شك أنها لقطة ذكية صيغـت في كلمات ونغم عذب .. وأيضا قوية التأثير حينما يستمع إليها الطفل أو يقرؤها مصورة .. مجسمة.

وحين يريد من الطفل أن يحس بالجمال .. يصوغ ذلك في قصيدته (الورد والشجرة) فيقول:

حكى لى شيخُ حارتنا

بأن الوردَ .. والشجرة

تماما مثلنَا أطفال

وأن الوردَ يفرحُ حين نسقِيه

ونرعاه .. ويبكى لو قطفْنَاه

وفى مرَّةْ ..

دخلتُ حديقةَ الحيوان

أنا .. وجميعُ أصحابي

وكنا نلعبُ الألعاب

بعيًد عن مكانِ الوردِ والأشجار

رآنا الشيخُ ..

حياني .. وحياهم ..

وتنتهى القصيدة بحكمة بالغة وفى فنية قادرة.

- **نشأت المصري:**

الذي مد الأطفال بعدد من الأعمال الشعرية والنثرية..ومن قصائده:(قصة الحجر) يقول فيها:

الزائر الغريب قال:

لو أننا نسمع ما تقوله الأشياء

ندرك أن غاية الوجود.. عبادة المعبود

الله لا سواه.. الله لا سواه

وهكذا أراك يا سيدة البحار

عابدة لله.. كثيرة الأفضال

طويلة النضال

ليستمر الكون والحياة

قلت: أنا كما تري ذبول واصفرار

قال الغريب: بل أراك قطعة من الجمال

تاريخك العطاء والكرم

ولا يهم الشكل لا يهم

.....

وذات يوم رأيت طفلا كالقمر

في يده حجر

أراد أن يقذفني فطار في الهواء

ثم أطلق الحجر

أصابني فقلت: آه.. يا لقسوة القمر

فالحجر المرتد قد أصاب رأس الطفل بالضرر

وبعد لحظة ضحكت

- **أحمد زرزور:**

الذي رأس تحرير مجلة قطر الندى فأخلص في عطائـه للطفل في سنين عمـــــره المختلفة. وشعر أحمد زرزور يخاطب الطفل فى باكورة علاقته بالمدرسة مع حصيلة لغوية قليلة – فى كلمات وسطور قصيرة جدا مكثفة المعنى والخيال .. من ذلك:

بيــوتٌ .. هناك بيـــوتٌ هنـــا

بيــوتٌ لنـــــا ولمـــن حولنـا

فمنهـا الكبيـرُ ومنهـا الصغيرُ

ومنهـا الغنـيُّ ومنهـا الفقيــرُ

بيوتٌ على الغصن فـوق الشجـرْ

وأخرى على الوردِ أو فـى الحُفَـر

تعالــوا نغنـــىّ لهـــا كلُّنـــا

لنحيــا بهـــا وهى تحيـا بنَـا

ولم يقتصر أحمد زرزور على شكل الشعر الذى يلتزم القافية .. فقد وجد في إمكانه أن يكتب بشكل الشعر الحديث، مثل نموذج (الولد الذي صار طبيبا) يقول فيها:

سمعتُ ذات ليلةٍ من جدّتي

الحَنُون

حكايةً غريبةً عن ولدٍ شقي

تعوَّدَ الكذِب..

تعود الخداعَ والدهاءْ

وكان يومه يمرُّ في تدبيرِ ألفِ مَقْلبٍ ومَقْلب

مستهزئًا من طيبة الصحاب..

وذات يوم يا أحبّتي

. تقولُ جدتي .

وكان هذا الولدُ الشقِيُّ يستحم

والموجُ عند الشاطئ البديع

هادئ رقيقْ

وساكن وديعْ

فصاحَ: يا صحابُ أسرِعُوا

فإننِي أضيْع

أنقذوا أخاكمُ الذي يحيطُه الخطَرْ.

ويكمل الشاعر حكاية الولد الشقي الذي كان يسخر من أصحابه في كل مـرة يمثل فيها الغرق.. حتى كاد التيار يبتلعه بعد ما انصرف عنه الأصحاب لكذبه وخداعه:

لولا اقترابُ زورقٍ يمرّ صدفةً

فأسرع البحَّارْ

وأنقذَ الصبيَّ من براثنِ الأخطار

وينهى الشاعر قصيدته بأن الولد تعلم بعد ذلك ألا يكذب.!

- **<u>محجوب موسى :</u>**

وقد كتب عدة مسرحيات شعرية للأطفال.. يقول عن (الحرية):

لماذا كلبتي يا عم لا تنبح

ولا تمزح

ولا تلهو معي كالأمس

تقول: لأنها في الحبس

وأين الحبس

إن حديقة الدار

بها بيت لكلبتنا نزينه بأزهار

تقول: انظر لسلسلة تقيدها

أنا أدركت يا عمي

سأسعدها بفك القيد

فما في الكون من فرح عظيم

مثل (حرية)

- **<u>يسن الفيل:</u>**

يبدع تجارب منوعة في مجال شعر الأطفال إلى جانب أنه شاعر قدير للكبار، يقول في إحدى قصائده:

مدرستي يا فخر الوطنِ

يا مهد النورِ مدى الزمنِ

أهواكِ هوىً يتملكني

يسري في الروح وفي البدنِ

.....

حجرات الدرس أحييكِ

وأختّي زملائي فيك

حاضرك الغد وماضيكِ

يسري في الروح وفي البدنِ

.....

صاحبتُكِ أنقي سنواتيٍ

يا نورَ الحاضر والآتيٍ

أهواكَ وحبك في ذاتيٍ

يسري في الروح وفي البدنِ

وكما نلاحظ صاغ الشاعر عمله في قالب الأنشـودة البسيطة التي يسهل ترديدها وغناؤها.

- **<u>الشاعر فؤاد بدوي:</u>**

له عدة دواوين للأطفال وتتميز بالسهولة والسلاسة.. يقول في إحدى قصائده:

الأطفال ربيع الدنيا

بسمة نور

نسمة سحر

تسري .. تجري

يا ربي .. يا واهب عمري

اجعل أيامي أزهارا

تنمو بحديقة أطفال.

- **<u>الشاعر أحمد فضل شبلول:</u>**

اهتم بشعر الأطفال دراسة وتحقيقًا وإبداعا.. يقول في قصيدته (كرة):

تدور العين في الملعب

على الأقدام والجبهة

وتجري الساق

وفوق العشب عند قوائم المرمى

يدور سباق

وألعاب لها فن

وتخطيط له علم

وساحرة على الأعناق

هتافات ترج مقاعد الإستاد

وتصفيق وتهليل

إذا اهتزت شباك الخصم

ونال فريقنا القومي

كئوس النصر

وتشرق شمس نهضتنا الرياضية

وتسبح في بحار الفخر

- **فوزي خضر:**

تعدد عطاؤه بين الشعر والكتابة للإذاعة وثقافة الأطفال .. يقول في قصيدتـه عن أبنائه الثلاثة:

كل قلوب الناس

أقسام أربعة

فأذين أيمن

وأذين أيسر

وبطين أيمن

وبطين أيسر

لكن قلبي قسم لثلاثة أقسام

قسم لمحمد

قسم محمود

قسم لشروق

كل صباح أسعي من أجلهم

أعطي كلا منهم قسمته

من نور القلب

- **أحمد مبارك:**

أبدع بعض الدواوين والمسرحيات الشعرية لأطفال.. يقول في إحدى مسرحياته:

بعد اللعب سأرجع لاستذكاري

أما الآن سأمرح وسأقطف بعض الأزهار

وأصيد فراشات

وسأصعد فوق الأشجار

وسأفعل ما يحلو لي

. أما الشاعر حسين علي محمد :

متعدد الألوان فى الإبداع .. فقد كتب الشعر – قصائد ومسرحا– كما أن له محاولات نقدية ودراسية – لا بأس به – وفى ديوانـه (الحلم والأسوار) الذى صـدر عن المجلس الأعلى للثقافة (1984) خاض الكتابة للأطفـال شعرا فى ثلاث قصائـد أفرد لها بابا في نهاية الديوان وهى:

1–الفيل الوفي: فهو فيل وافق أن يساعد السيدة (دايارام) الأرملة التي تقترب من الخمسين .. وأصبحا صديقين حتى فاض النهر على القرية والعجوز نائمة في كوخها .. فينبهها الفيل إلى الكارثة .. لكن النهر لا يغرق إلا جارا ظالما للعجوز كان قد استولى على أرضها .. يقول الشاعر في قصيدته القصصية على لسان الفيل الوفي:

ذات مساء كان شديدَ الإظلام

فاض النهر ..

وأغرقَ أرضَ الوادي كلِّه

كانت دايارام المسكينةُ نائمةً في الكوخ

فطرقْتُ الباب ..

وأشرتُ إلى النهر

لكن المسكينةَ ضحكت

كانت تحسَبُ أن النهرَ أتى بالخير

ورأيت البسمةَ تعلُو شفتيها .. فصرخْت

وتنبهَتِ المسكينةُ ساعتهَا

حملتْ ما تقدِرُ .. ركبتْ فوقِى ..! (وهكذا)

2-ملجأ الأيتام: وهى قصة هندية وقعت فى بلدة (فاناراسى) لصانع سجاد يسمى (فوندان) الذى يحكى للملك قصة تجعله يبنى ملجأ أيتام للأطفال الفقراء العرايا .. ومنها يقول فوندان:

تعرفني كلُّ المدنِ

وتعشَقُ مصنوعاتِي

في أثناءِ الأسْفار

أجدُ الأطفالَ عرايا

يفترشُون ترابَ الأرضِ

فأحزن

أتمنَّى أن يجدَ الأطفالُ بيوتا

تحميهم من حرِّ الشمس

وتقيهم شرَّ الأمْطَار

وهناك أجيال من الشباب الذين وضعوا أقدامهم فوق هذا الطريق لكنهم لم تكتمل

تجربتهم.. برغم من أنهم يحاولون بمذاق مختلف.. وأسلوب يؤكد استمرار هذا الفن النبيل..

3-الثور العجوز: وهذه قصة شعرية تتحدث عن العدالة حتى لو طلبها حيوان مثل (الثور) يشكو معاملة صاحبه السيئة .. فقد استطاع الثور أن يضرب الجرس الذى يوقظ السلطان وينبهه إلى أن شاكيا يريده .. ويعرف السلطان معاملة (بيليتز) السيئة للثور .. وينصفه السلطان ويأمر بيليتز بأن يوفر للثور أسباب الراحة، يقول الشاعر:

أخذ الرجلُ الثورَ .. وعاد

لحظيرته ..

صوتُ السلطانِ يرنُّ بأذُنَىْ بيليتز:

يا بيليتز: تعلّم أن تحترمَ الطاعنَ فى السِّن

وتوفرَ سبلَ الراحةِ له

وخصوصًا لو كان من الحيوانِ الأعجم

لا يعرفُ أن يتكلم

كم من جاهل

نُبصِرهُ يضربُ تلك الحيواناتِ بلا رحمة

مع أن الحيوانَ يؤدى أعمالا صعبة

لا يطلبُ أجره ..

لو نطقَ لكشفَ لنا .. ظلمَ الإنسانِ وشرَّه ..

وأعتقد أن الشاعر لديه أدواته الجيدة التي يستطيع من خلالها أن يضيـــف الكثير إلى شعر الأطفال خاصة مضامين من تراثنا العربي .. سواء على مستوى القصيدة أو القصة أو الدراما الشعرية.

تجربتي في شعر الأطفال ... أحمد سويلم

دعونا نبدأ بتأكيد – دون تحيز – وهو أن الشعر أسبق الفنون إلى وجـدان الطفل.. فالطفل يولد مزودا بحاسة إضافية يدرك بها ما فى الأعمال الفنية من سحر وجمال.. كما أن النغم والموسيقى الكلام يسبقان إدراكه لمعاني هذا الكلام وألفاظه المفـردة.والدليل على ذلك أن أول صوت يدركه الطفل هو صوت الأم .. خاصة حينما يبكى فتندفع إليه أمه لتهزه أو تهز مهده الصغير فى رقة مصحوبة بموسيقى صادرة من قلبها تنسجم مع إيقاعات هذا المهد الصغير.. وتسمى هذه الأنغام العذبة التي تهدهد بها الأم طفلها (المناغاة).. ويترجم ذلك بما يسمى بأغاني المهد.

لقد أدرك الشعراء – منذ بدأ الشعر – تأثير هذا اللـون من الأدب على الأطفـال فالشعر يكاد يترجم حركات الطفل التلقائية.. ولغته الأولي.. وأجهزة وعيه وشعوره.

وتؤكد الدراسـات أن الصياغة الشعريـة المغناة تبقى فى وجـــدان الطفل إلى أزمان طويلة .. ومن ثم فكلما نجحنا فى صياغة كثير من القيم فى مقطوعات شعرية شائقة يسهل حفظها وترديدها.. كلما أنشأنا طفلا متذوقا للجمال.

الشعر إذن يمكن أن يقدم من المهد إلى اللحد .. وعلى الشاعر أن يفهم سيكولوجيـة الطفل.. ويقدم له الشعر بلغـة سليمة وإيقاعات بسيطة فى مجزوءات البحـور التى تتسم بعدم التعقيد.

ولا نريد أن نستغرق فى تاريـخ الشعر المقدم للأطفـال .. سواء فى الشرق أو فى

الغرب.. فهذا أمر يعرفه الجميع.. لكن الأمر يصبح أكثر أهمية فى أيامنا .. ونحن نعيش عصر العلم والتكنولوجية ونظن أن هذا العصر يزيح جانبا الفن الجميل والشعر ليفسح المجال إلى الحقائق دون الخيال.. وإلى العلم دون الفن والجمال.

ومنذ الثمانينيات من القرن الماضي وأنا أغوص فى هذه القضية.. وأحث أصدقائي الشعراء على الكتابة للأطفال.. والحق يقال إن عددا كبيراً من الشعراء قد استجاب لهذه الدعوة وأخذ يبدع وينوعّ فى أعماله الشعرية بالفصحى أو العامية وفى قوالب مختلفة ابتداء من المقطوعة القصيرة مروراً بالقصيدة .. وانتهاء إلى المسرحية الشعرية. واليوم يمكن أن نؤكد باطمئنان وجود هذا التيار الفني الجميل فى الساحة الأدبية.

وقد بدأت رحلتي مع شعر الأطفال بدراسة علمية بعنوان **{أطفالنا فى عيون الشعراء}** طبعة أكثر من مرة.. وفيها أرصد شعر الأطفال تاريخيًا وفنيًا منذ الحضارات القديمة حتى عصرنا الحديث .. وذيلت هذه الدراسة بدعوة الشعراء للإقبال على هذا الجنس الأدبي الجميل.. وكانت الطبعة الأولي فى سلسلة [أقرأ] بدار المعارف.

ثم تتابعت دراساتي فى مجال أدب الأطفال فأصدرت **{التربية الثقافية للطفل العربي}** 1993 – و**{الفكر الإسلامي فى ثقافة الطفل العربي}** 1997 – و**{إطلالة على عالم البراءة}** 2014.. وقد حققت أشعاري الهواري.. وأصدرت أشعار شوقي للناشئين.. وبحوث أخرى متنوعة.

أما تجربي الإبداعية فقد بدأتها عام 1981 بخمس قصص من ألـف ليلـة وليلـة برسوم الفنان مصطفى حسين.. ثم انصرفت إلى الشعر.. وكتبت أول مسرحيـة شعرية بعنوان **{حكايات وأغاني كامل كيلاني}** وعرضت على المسرح فى ديسمبر 1982 – وقدمت بفن العرائس وألحان الفنان القدير جمال سلامة.

وتسلحت بالجسارة والطفولة معا.. وبدأت مع المرحلة المبكرة للطفولـة وأصـدرت **{ديوان الطفل العربي}** يضم عدداً كبيراً من الأغنيـات القصيـرة باللغـة الفصحى المبسطة.. وتدور حول عالم هذا الصغير ببساطة وتلقائية.. وقـام بتلحينهـا الفنان هاني شنودة ومنها على سبيل المثال:

لي وزة وبطة

وأرنب وقطة

هم أصدقائي كلهم

وعند أختي مثلهم

هم يملئوني فرحا

ومتعة ومرحا

أو أقول:

كوك كوك كوك

هذا صوت الديك

يشدو كل صباح

حيي على الفلاح

طلعت شمس اليوم

فوداعاً للنوم

أو أقول:

لي صاحب وغىّ

لا يستطيع المشي

يمشى بعكازين

ولا يريد العون

أحب أن ألقاه

دوما لا أنساه

كما دارت مقطوعات أخرى حول جمال الطبيعة وألعاب الطفولة والصداقة وقيم النظام والتسامح والمدرسة والبيت.. وغيرها.

من الدواوين التى تلائم المرحلة التالية: ديوان **{أحب أن أكـــون}** حيث قدمت للطفل المهن المختلفة بأسلوب شعري بسيط تشبع حلم الصغير فى المستقبل.

ولأن الطفل يحب الحيوان فقد رأيت أن أغذى فيه هذه العاطفة النبيلة.. فأصدرت له ديواناً بعنوان **{أتمنــي لو}** وجعلته يتمني لو يكون طائراً جميلاً أو حيواناً طيباً..

ومن ذلك مثلا:

أتمنى لو أنى عصفور

ألعب.. ألهو.. وأغنى للنور

وأنقّر فى الصبح نوافذ

أصحابى الظرفاء

وأغرد.. وأقول:

صباح الخير.. صباح النور..

أو أقول:

أتمنى لو كنت حصانا عربيا

أمشى بشموخ وسعادة

أمنح أصحابي حبا وحنانا

أنا لست جبانا

لا توقفني أسوار وجسور

تاريخي نصر.. وشهامة

وصفاتي جود وكرامة

أو أقول:

أتمنى لو أنى أسد فى الغابة

أحكم بالعدل وبالإحسان

على كل الحيوانات

حتى ينتشر الأمن بكل مكان

حتى تصبح كل الحيوانات

صحابة.!

وأصعد فى المرحلة العمرية وأصدر عام 1999 ديوان **{أنا وأصدقائي}** وهو يقدم مواقف الطفل فى هذه المرحلة مع مفردات عالمه مثل:

أنا والوردة – أنا والقطة – أنا والموسيقي – أنا والمكتبة – أنا وملابسي – أنا وعصفوري – أنا والكرة – أنا وحقيبتي – أنا والطريق – أنا ولعبتي المفضلة – أنا ومدرستي – أنا والكومبيوتر.

وأحاول فى هذه القصائد أن أعرض لموقف يحدث بين الطفل وهذا الصديق أو هذه الصديقة بما يحفزه على حب الحياة وحب عالمه الجميل.

وفكرت أن أربط الطفل بتراثه الأدبي وهويته العربية .. فصغت بعض الأمثال العربية شعراً بسيطاً مفهوماً.. في ديوان **{يقول المثل العربي}** من ذلك مثلا: **{الجار قبل الدار}:**

عليك أن تختار

الجار قبل الدار

والصاحب الأمين

من يحفظ الأسرار

ومن يهبُّ لك

فى الليل والنهار

عليك أن تختار

الجار قبل الدار

وفى رؤية شعرية أخرى أصدرت ديوان **{فلسطين عربية}** وكتبت على كل حرف من هذا العنوان قصيدة خاصة: فقصيدة أولها ألفاء وثانية أولها لام وثالثها أولها السين وهكذا.. فمثلا كتبت فى حرف (السين):

سقط محمد فى القدس شهيداً

ووفاء.. ومروان

ونضال وعدنان ولمياء

سقطوا شهداء الحق

وروا بدماهم أرض الآباء

وتعانق فوق قباب الدين

هلال وصليب

يا أهل الحق الساطع

ندعوكم أن يتوحد فيكم هذا العزم

فى وجه عدو الدين الغاشم..

إخوتنا الشهداء:

معكم بالروح وبالدم

لنعيد لواء الآباء

ومن الدواوين الشعرية التى تخاطب ما قبل مرحلة المراهقة ديوان **{أحلامي الجميلة}** وهو ديوان متنوع الموضوعات يقدم عالم هذه المرحلة وعلاقة الطفل بالأشياء والطيور والحيوانات.. ويقدم له أحلامه.. ويفسر له معاني بعض الأسماء (شعراً).. ويكفى أن أذكر هنا عناوين القصائد: **من أنا – نادي – الكتاب وأنا – أحب الأصوات – أحلامي الجميلة – الطيور والشتاء – عاشت الأسامي – أغاني النيل الحزين – حكاية الطيور المهاجرة – ألغاز عن الحيوان.** ومن هذه الألغاز مثلا أقول:

يحمل أثقالا.. لا يتمرد

ويطيع الإنسان ولا يتردد

وله ذاكرة أقوى من كل الحيوانات

وله وجحا.. قصص وطرائف

وله في القرآن والإنجيل

مواقف أخرى

ويعيش بكل مكان فوق الأرض

هذه نماذج للدواوين الشعرية – وهى أكثر من ذلك..

كما حاولت أن أكتب قصصا شعرية عن الحيوان مستمدة من كليلة ودمنة في أكثر من إصدار منها: واحة الحيوان – وبستان الحكايات.. وهى تعتمد على السرد والحوار معا.. مثلا كتبت قصة **{الصديق والعدو}** هكذا:

كان الأسد صديقاً للدب

يربط بينهما الحب

ويسيران معا فى كل مكان

وذات صباح حار

شعرا بالعطش القاتل

فانطلقا فى الغابة بحثا عن ماء

حتى وجدا نبعا

وهنا اختلفا: من يشرب قبل الآخر

وتستمر الحكاية ويتشاجران فيحوم فوقهما نسور الغابة.. فيقول الدب للأسد:

إن نسور الغابة

تنتظر الآن

حتى أحد من الأخر

فتنقض على المهزوم وتلتهمه

ويفيق الأسد.. ويكف عن المشاجرة.. وتنصرف النسور حين أتفق الأصحاب على الخير.. وتركوا العدوان.

وجربت بعد نجاح المسرحيــة الشعريــة الأولي **{حكايات وأغاني كامـل كيلاني}** أن أكتب المسرحية المستمدة أيضاً من تراثنا.. بعضها على ألسنة الحيـوان.. وبعضها قصصاً عربية.. وسمحت لنفسي أضيف إلى المضمون ما أشاء من رؤية العصر.

وكتبت حوالي خمسين مسرحية شعرية طبع بعضها وقدم بعضها في التليفزيون المصري.

هذه تجربتي مع شعر الأطفال حتى الآن .. تلك التجربة التى لم أصدق مناسبتها للأطفال إلا بعد عرضها وتجربتها معهم أنفسهم فى لقاءات مستمـــــرة.. أو فـوق المسرح. والواقع أن كتاب الأطفال مطالبون بأن يعرفوا [ماذا يريـد الأطفال] وليس [ماذا نريد نحن للأطفال}.

إن طفل اليوم ليس هو طفل الأمس .. ومن ثم فإنه اليوم يريد منا ألا نفترض غباءه ونحن نتعامل معه.. فطفل اليوم رجل – صغير السن – له حقوقه التي تتلاءم مع مراحل عمره.. وهو يريد منا أن نساعده بإخلاص على تنمية ملكاته وقدراته وخياله ليستمتع بحياته. وهو يريد منا أن نيسر له لغته العربية لكي يحبها ولا ينفر منها إلى اللغات الأجنبية.. أو لغة الشاشة الزرقاء..

وهو يريد منا أن نعرفه على تاريخه ببساطة وبتشوق.. لنعيده إلى هويته مع الأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا الحديثة والمعارف الأخرى التي تضيف إلى عقله الكثير.

وهو يريد منا أن نقدم لـه ألوان الثقافة الأدبيـة والخيال العلمي بلا خوف.. ونهتم بالشعر والموسيقى والمسرح تماماً كاهتمامنا بالكتاب القصصي.. حتى نغذي خياله ووجدانه ووعيه..

وهو يريد منا أن نستطلع رأيه قبل وأثناء وبعد أن نقدم له ما يريد عن طريق ورش عمل والمؤتمرات.. واللقاءات المستمرة.

وهو يريد أن نقدر إبداعه في المجالات المختلفة ونهتم بما يبدع..

وهو يريد أن ننتقي له وندقـق في ترجمة ما يتوافق مع ثقافتــه الخاصة فيحدث التفاعل والتوازن بين ما يقدم له من ثقافته وثقافة الآخر.

وهو يريد منا– إذا كان من أصحاب الظروف الخاصة الذين امتحنهم الله فى واحدة أو أكثر من حواسهم – أن نشعـره بأهمية الإرادة الإنسانية والمقدرة على تحدي هذه المحنة والصبر والشجاعة.. وقهر العجز.. ونشعـره بالمساواة ونسوق له النمــاذج الناجحة فى التاريخ..

إن الطفل يبدأ به كل شئ..

الثقافة تبدأ بالطفل

وعلينا أن نسير ذلك ابـتداء من المرحلة المبكرة حتى ينشأ الطفل نافعا فاعلا فى المجتمع..

تبسيط التراث شعرا للأطفال

الأمثال الشعبية نموذجا

يقول الميداني في كتابه (مَجْمَع الأمثال):

* المثل مأخوذ من المثـال .. وهو قول سائر يُشَبَّه به حالْ الثاني بالأول.. والأصل فيه التشبيه. وسميت الحِكَم القائم صدقها علي العقول أمثالا.. لانتصاب صورها في العقول.

ويجتمع في المثل أربعة عناصر لا توجد في غيره من ألوان الكلام : إيجاز اللفظ.. إصابة المعني.. حسن التشبيه.. وجود الكناية.

ويقول ابن المقفـع: إذا جُعِل الكلام مثلا .. كان أوضح للمنطـق .. وآنق للسمع .. وأوسع لشعوب الحديث.

ويعرف محمد رضا المثل بأنه خلاصة تجربة إنسانية.. وَمحصول خبرة البشر.

أما أحمد أمين فيقول: المثل نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ.. وحسن المَعني.. ولطف التشبيه.. وجودة الكناية.. لا تكاد تخلو منه أَمة من الأمم.. وميزة الأمثال أنها تنبع من كل صفات الشعب.

وتقول د نبيلة إبراهيم : المثل يتفق مع طبيعة الحياة لأنــهَ مجموعة من المدركات والأحوال والتجارب المتنوعة.. وهو ليس ذا طابع تعليمي صريـح .. ولكنـه غير مباشر.

ويعرفه في الغرب آرثر ميللر بأنه أسلوب تعليمي ذائع بالطريقة التقليديـة.. يوحي بعملَ معين.. أو يصدر حكما علي وضع من الأوضـاع .. وهو يعبر عن حقيقـة مألوفة صيغت في أسلوب مختصر سهل حتي يتداوله جمهور واسع من الناس.

من هذا.. ندرك أن المثل تجربة إنسانية يعبر عنها بإيجاز.. ويصلح العمل بها في أي زمان ومكان.

وفي تراثنا العربي والإسلامي نجد الأمثال تشكل جانباَ مهما في هذا التراث.. وتقدم لنا تجارب متنوعة تظل خالدة علي مدي الزمان.

فالقرآن الكريم مملوء بالأمثلـة التي تدعو إلي التفكير والتأمل.. وهي كثيرة تذكر منها علي سبيل المثـال :(وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلها إلا العالمون) العنكبوت/ ٤٣، ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعهـا في السماء) إبراهيم/ ٢٤، (وضرب لكم مثلا من أنفسكم) الروم/ ٢٨

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يبصرون) البقرة/ ١٤_١٨

(مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسَمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) البقرة/ ١٧١

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبـات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتي إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلهـا أنهم قادرون

عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) يونس/ ٢٤

ويحذر الله تعالي أن يضرب به المثل فيقول:

(فلا تضربوا بالله الأمثال) النحل/ ٧٤

أما السيرة النبوية فنجدها أيضا حافلة بالأَمثال ومنها:

(مثل المنافـق الذي يقرأ القرآن كَمثل الريحانـة ريحها طيب وطعمها مر.. وَمثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها)

ومنها أيضا:

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالحمي والسهر)

ومنها أيضا:

(مثل العالم مثل العطار إن مررت به وجدت رائحة الطيب)

وهناك تصنيفات كثيرة للأمثال الشعبية من أشهرها: مجمع الأمثال للميداني.. للأمثال الفصيحة.. والأمثال العامية لأحمد تيمور.

وحينما عشت في ظلال هذه الأَمثال في القرآن والسنة والتراث سألت نفسي : لماذا لا نقدم بعض هذه الأمثال للأطفال.

وبالفعل أنجزت تجربتين الأولي : أَمثال وحكايات.. وهذا الكتاب يقـدم ثلاثين مثلا عربيا وثلاثين حكاية وراء المثل.. وقد حرصت علي اختيار الأمثـال والحكايات

التي تغذي عقلية الصغير بالقيم والسلوكيات الإيجابية.

أما التجربة الأخرى فقد كانت بعنوان : يقول المثل العربي: وتتضمن عشرين مثلا في عشرين قصيدة شعرية سهلة بسيطة التعبير لها إيقاع موسيقي يمتع الصغير ويجعله يرددها بيسر وسهولة.

وقد حرصت أيضا في هذه التجربة الشعرية علي اختيار المثل القريب المفهوم الذي يعبر عن السلوك والعادات والقيم النبيلة. هذه بعض الأمثال:

(الطبع يغلب التطبع)

يغلب الطبع علي أهله

ويجيء الشيء من أصله

أن يكن في طبعه صالحا

عاش طول العمر في ظله

وإذا القلب أتي أسودا

ظل مطويا علي ليله

إنما الناس صنوف فلا

تبعدوا الإنسان عن آصله

(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)

لا يلدغ المؤمن مرتين

وليس يسعي نحو محنتين

يأخذ من تجارب الحيـاة

حصنا لعينيـه ولليديـن

يحـذر الشــر الذي أذاه

ويشكر الرحمن رب الكون

(الطيور علي أشكالها تقع)

علي أشكالها تقع الطيـور

خبيث أو أليــف أو أمير

ونحن الناس أشكال كثيـر

حمام أو ذئاب أو صقـور

وتلك الأرض في فلك تدور

فيظهر ما يغيـم ومـا ينير

صدقتم أيها الأجــداد قلتم

علي أشكالهـا تقع الطيـور

(الطمع يذهب ما جمع)

يحصد الإنسان دوما ما زرع

إن دعا الله وصلي وخشــع

خصه الله بخيـــر متسع

وإذا ألقي هواه فـــي الطمع

في غد يذهب عنه ما جمع

(من حفر حفرة لأخيه وقع فيها)

إن تحفر لأخيك الحفرة

تسقط فيها..

وإذا تحسد أحدا مرة

تندم فيها..

تلك الحكمة يا أصحابي

بمعانيها..

(الجار .. قبل الدار)

عليك أن تختـار

الجـار قبل الدار

الصاحب الأميـن

من يحفظ الأسرار

ومن يهـبُّ لك

في الليل والنهـار

عليك أن تختــار

الجار قبل الـدار

(كل إناء بالذي فيه ينضح)

الناس كالنجـوم

لامعة.. وغائمـة

والناس كالمعـادن

زائفـة.. وسالمـة

وكالإناء ينضـح

كريمـة وآثمـة

الحكمـة القديمـة

إلي السنين القادمة

(لكل جواد كبوة)

لا يفلت العالم من هفوةْ

ولا نحا الجواد من كبوةْ

والفارس القادر مهما مضي

بسيفه لابد من نبوةْ

فوحده الله الذي يمتلك

عالمه بالفضل والقوةْ

(لا يفل الحديد إلا الحديد)

لا يفل الحديد إلا الحديدُ

لن تنال المني وأنت بليدُ

واجه الصخر بالصخور قويا

لا تخيف الأسودَ إلا الأسودُ

وإذا الرأي لم يناصره فعل

صار قولا مجردا لا يفيدُ

وأخيرا..

تلك كانت تجربة شعرية تؤكد قدرة الشعر علي حمل قيم التراث وتبسيطها للقارئ الصغير ومحاولة إعادته لهويته وتراثه العظيم

السير الشعبية وأدب الطفل

خلّفت الإنسانية على مدي تاريخها الطويل تراثاً كبيراً ثرياً من الحكايات والنوادر والقصص والملاحم التى تنتمي إلى الإنسان جيلاً بعد جيل.. وهى تتضمن أفكـاره وقيمه وسلوكه وثقافته وعقائده.

وقد اختلف العلماء المهتمـون بدراسة الموروث الشعبي فى تعريفــه.. وبعيداً عن هذا الاختلاف فإن الموروث يحمـــل فى ثناياه الملامح النفسيــة والفكريــة للمجتمع الكبير فى أي عصر من العصور.. وهو الذى يصوغ الإطار العام ويحـدد العلاقات بين الفرد والجماعة . صغيرة كانت أم كبيرة . إنه التـراث الذى يعني الثقافــة أو العناصر الثقافية التي تلقاها جيل بعد جيل وتدلنا على ذلك تلك التفسيرات المختلفة التى تدور حول (التراث) منها:التراث الشفوي.. ويعني جميع جوانب المأثورات الثقافية التى انتقلت شفوياً.

الإبداعات الأدبية الشعبية.. وتشكل جانباً مهماً من جوانب التراث الشعبي، وتشمل السير الشعبية والحكايات والأغاني والشعر والألغاز.. وغيرها.

. التراث الشعبي.. وهو يمثل عامة الموضوعات التي تنتمي إلى الفلكلور.. وإلى دراسة التراث أو الإبداع الشعبي.

ويبدو أننا يمكن أن ننقذ أنفسنا من هذا الغرق بين المصطلحات بمفهـوم يقودنا فى مسيرتنا.. وهو أن الموروث الشعبي هو محصلة الثقافة الشعبية المتراكمة المتنقلـة من أقدم العصور.. والمسايـرة لتاريخ الشعب على مـر العصور وتنـوع مظاهـــر

حياته.. وهذا الموروث هو الذى يحافظ على دعامة الأصالة ولا يقف فى وجه التقدم العلمي والتكنولوجي.. بل يساعد عليه بالمعرفة الصحيحة بطبيعة الإنسان وجوهر الإنسانية والتكامل الحيوي بين الفرد والمجتمع.

وليس من اليسير أن نفصل بين الوسائل المختلفة التى تستخدمها عناصر التراث الشعبي .. ذلك لأن هذه الوسائل تتداخل بتدخل الوظائف .. فمجال الفنون الزمنية والتشكيلية يتشابك إلى حد كبير وتتداخل التقاليد والعادات فى أشكال الفنون الشعبية والمضامين.

وطبقاً لهذا التحليل الشامل فإن الموروث الشعبي يهتم بالعادات الشعبية . والمعارف الشعبية . والأدب الشعبي . والفنون الشعبية . والثقافة المادية.

ولكل أمة موروثها الشعبي الذى يحرص كتّابها على تقديمه لأبنائها صغاراً وكباراً . ومهما اختلفنا على إطارات وأشكال هذا الموروث فإن من أهم صفاته الاحتفاظ بما يتفق مع التطور.. والاستغناء عما يتعارض معه.. وتعديل ما يستحق أن يعدل.

لهذا فإن عناصر هذا الموروث وأبطاله ورموزه وسيره وعاداته.. تخترق الزمن.. فيصل إلينا منها ما يحمل دلالات العصر.. وما يمكنه أن يعيش فى الوجدان العام بصرف النظر عن عنصري الزمان والمكان.. وهى معطيات تحتفل بالقيم العليا التى تسود المجتمع الإنساني..

ويعد الأدب الشعبي أهم حلقة من حلقات الموروث الشعبي.. وتعتبر (الحدوتة)

الشعبية أول لون من ألوان السرد القصصي عرفته الإنسانية فى طفولتها الأولي.. فقد نشأت الحدوتة مع قدرة الإنسان على الكلام فى إطار ذلك المجتمع البدائي المحدود.. والذى كان يضم الرجل والمرأة ويضم مالهما من أولاد صغار..

ولا نستطيع أن نزعم أن الحدوتة فى ذلك المجتمع البدائي كانت عملاً عقلياً وفكرياً .. ولكنها كانت عملاً فطرياً دفعت إليه غريزة البقاء.. فقد نشأت فى إطار التحذير والتخويف من الضرر.. وتوجيه الأوامر والنواهي لتجنب الخطر.. ومن ثم تعتبر الحدوتة أول عمل تربوي عرفته الإنسانية منذ بدأ الإنسان يحس بكيانه فى هذا الوجود.

ويؤكد الكاتب الإنجليزي (هـ. ج. ويلز) أن الرجل المسن فى محيط الأسرة ومركزه فيها كان موضع احترام الجميع.. ومن هنا كانت بداية الحكمة الاجتماعية والسلوك التربوي فى المجتمع الأول.. فقد بدأت الأمهات يغرسن فى نفوس الأبناء الصغار احترام الرجل المسن وتقديره.. لأنه الكبير ولأنه الحكيم.. وربما مثل هذه البذرة الأولي للرأي الحكيم أو الحكَّاء..

واعتمدت الحدوتة على أبطال من البشر والحيوان.. وجعلت الحيوان يتكلم ويغضب ويفرح ويخادع ويناور ويرضي.. تماماً كما يفعل الإنسان.

ثم جاءت الحكاية الشعبية بعد الحدوتة بعد أن نمت فى الإنسان القدرة على السرد والقصص والتخيل والمحاكاة والتعبير.. وبعد أن صارت له تقاليده وعاداته.

والحكاية تدور على ألسنة شخص أو أشخاص يمثلون نموذجاً إنسانياً.. متميزاً..

"فجحا" مثلا يمثل الضاحك الباكي.. و"قراقوش" يمثل الحاكم الظالم.. و"أيسوب" يمثل حكمة القدماء.. وهكذا.

أما السيرة الشعبيـة فهي حكاية شعبية طويلة ذات حلقـات وفصول.. وهى تشـمل حقائق لا سبيل إلى إنكارها.. وتشمل كذلك خرافات أو خيالاً محضـاً لا سبيل إلى إثباته.

ولعل واضعي هذه السير لم يقصدوا إلى التحقيق والتدقيـق .. بل اهتموا بمغـزى القصة وتأثيرها وغاياتها التربوية وقيمتها..

فإذا كان المراد تحقيق أي غرض من هـذه الأغراض.. فلا بأس لديهم ن يضعـوا إلى جانب عنترة أو سيف بن ذى يزن، أو حتى هارون الرشيد أشخاصـًا جاهلين.. وأشخاصاً آخرين عاشوا بعد البعثة المحمدية بسنوات طويلة.. من ثم ينضمـون هؤلاء جميعاً فى سلك واحد دون النظر إلى فوارق الزمان والمكان.. وبذلك يتحقق الغرض التعليمي مثلاً..

وإذا كان الغرض الأخلاقي يتحقق بأن يصرع أبو زيد ألفاً فى معركـة واحدة فإنهم يقيمون هذه المعركة من العدم.. ويصرعون ألفاً بضربات السيف وطعنات الرماح.. بل وبدقات الدبابيس..

ولذا فالتاريـخ الذى تصوره هذه القصص ليس كالتـاريخ الذى نعرفه ونقرؤه فى مراجعه الدقيقة.. ونصححه على ضوء الوثائـق والآثار والشواهد.. بل هو تصوير للحياة الوجدانية التى عاشها العامة فى ظل أحـداث كبيرة أو فى ظل شخصيات

كبيرة.

ويتراوح أسلوب السيـر بين النثر والشعر ويدور حول البطولات والفروسيـة والحروب ولهذا فهي تشتمل على أشعار ملحمية.

وأهم أبطال السير الشعبية: عنترة بن شـداد . سيف بن ذي يزن . أبو زيد الهلالي . على الزئبق . الأميرة ذات الهمة . الظاهر بيبرس . حمزة البهلـون . فيروز شاه . أحمد الدنف.. وغيرهم كثير لم يصل إلينا..

وقد جاءت السير الشعبيـة تصويراً حياً للبطل العربي الذى لا يقهر، وتتضافر هذه الصورة مع الأبطال الجانبيين فى محاربـــة الشر الذى يرمز له ويسمي فى السير بالكفر والخروج على الدين ومناصرة عبادة الأوثان.

فكأن فكرة الخير والشر قد تشكـلت فى هذه السير تشكلاً إسلامياً يتآلف مع العقيدة الإسلامية ولا يختلف معها..

ولهذا تقسم السير إلى عالمين: عالـم المؤمنين وعالم الكفار والملحديـــن.. وأيضاً تسوق إلينا عالم الجن والشياطين والسحرة والكهان بين الإيمـان والكفـر.. ومن ثم تدور المعارك.. وتضيق المواقف وتنفرج فى تشويق بالغ وتصويـــر دقيق وخيـال ممتع..

ونلاحظ أن السير تتميز بالطول ولهذا تروي على حلقـات.. وقد أثمر هذا الطـول

عند المحترفين مجموعة من التقاليد القصصية التى تقترن بالسير الشعبية.. من ذلك استهلال السمر وختامه بالصلاة على النبي مع تأكيد صفته العربيــة ثم النص على تأثير الشاعر أو المحدث إلى حد البكاء من المتلقين.

ويعكس بطل السيرة حقيقة العلاقات التى تربط الجماعة فى المجتمــع الذى أنشئ فيه العمل الأدبي.

أما بطل السيرة فهو بطل درامــي يعبر عن الفرد وسط دوامــة الصراعات مع القوي الأخرى تعبيراً فنياً..وإما بطل أسطوري يتمتع بإمكانــات لا تعرفها الطبيعة البشرية المحـدودة.. فهو يستعين بالقوة الغيبية الخارقة كالسحر والكهانة والآلهة والشياطين.. وأيضاً بالقوي الجسدية غير المحدودة.. ويسخر الحيوان والريح والمــاء فى خدمتــه، وإما بطل ملحمي فردي يعكس موقفاً بذاته لكنه يعبر عن الجماعة وموقفها.

وربما تجتمع هذه النماذج جميعاً فى بطل السيرة.. أو تجتمع بعضها دون الأخرى، ومجمل القول إن السيرة الشعبية وإن كانت تتكئ على التاريخ والحقائق لكنها ليست ثبتاً تاريخياً لأحداث حياة البطل أو العصر.. ولذا يمكن أن نعتبر قالب السيرة أصلاً للرواية فى شتي صورها وبشتي أنواعها ونستطيع . تجاوزاً . أن نجعلها روايـة لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية.. إنما نطلق عليها (الروايــة).. أو (الرواية السيرة).

وبذلك يمكن أن تكون سيرة عنترة رواية من نوع السيرة يغلب عليهـا الطابــع التاريخي.

السيرة الشعبية
فى عالم الصغار

تعتبر السيرة الشعبية.. إلى جانب كل ما يدخل تحت الموروث الشعبي.. من مصادر أدب الأطفال.

وبالرغم من أن السيرة الشعبية التى وصلت إلينا قليلة العدد، إلا أن الكتَّاب قد أقبلوا عليها يقدمونها فى أشكال مختلفة من التبسيط والتيسير والتلخيص.. وكان من أهم الكتاب الذين عنوا بالسيرة الشعبية للكبار والصغار وللناشئة: محمد سعيد العريان . محمد أحمد برانق . عباس خضر . فاروق خورشيد.. وغيرهم.

ونلاحظ أن السيرة الشعبية باعتبارها أدباً شعبياً يمكن أن يكون لها عدة وظائف أهمها:

1. **وظيفة ثقافية**.. فالأدب الشعبي ليس مجرد تسلية أو متعة أو ترفيه.. ولكنه زاخر بالمعارف العامة التى يحصلها الطفل من الإطار الاجتماعي الذى يحيط بهذا الأدب مثل المواقيت وأسماء الشهور والأماكن والمناخ وغيرها..
2. **وظيفة جماعية أو قومية**.. وهى الوظيفة التى تحافظ على التراث الجماعي من ناحية وعلى مزاياها وأمجادها من ناحية أخرى.. وهذه الوظيفة تقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

أ/ مرحلة التطور للبيئة والمجتمع منذ بدأت السيرة من البداوة إلى الحضارة.

ب/ البيئة أي أبعاد الوطن جغرافيا.. ونوعية هذه البيئة الاجتماعية.

3. **وظيفة نفعية**.. حيث يرتبط الأدب الشعبي بمنفعة الإنسان وثروته أكثر مما

يرتبط بتحقيق القيم الجمالية أو التسلية أو تزجية الفراغ.. ولذا فهو يقدم معاني عملية وقيما تربوية مختلفة.

4. وظيفة الشعور بالذات.. الفردي والجماعي.. وهذه الوظيفـة تبدو فى حكمـة الشعب المبثوثة فى أمثاله وملاحمـه الكبرى التى تحكـي سير الفرسان والأبطال.

5. وظيفة تفسير الظواهر.. بالمحافظة على الأصالة والقيم القديمة.

ويري بعض العلماء أن السيرة الشعبية هى أهم الأشكال التى تصلـح للطفل وهى تعد الحلقة الكبرى فى التراث الأدبي الشعبي.. ويرون أنها بمضامينها ومحاورها خط مشترك بين العرب.. وجميعها تستهدف التصعيد إلى مثال تحرص الإنسانية أو الجماعة عليـه كما تستهدف تثبيت القيم الإنسانيـة العليا بالإضافـة إلى الترفيه والتعليم..

إن السيرة الشعبية تقدم بطلها فى مراحل خمس هى:

1. مرحلة التكوين.. أي فترة ولادة الشخصية قبل ملامحها وسماتها وجذورها الأولي وما يمكن أن يبدو عليه من الصغر من صفات تسمو وتتسع وتتبلور حتى يصبح بطلاً.
2. مرحلة الفروسية.. وفيها يخلص البطل من جميع الدوافع الذاتية التى كانت تتحكم فيه ليحل محلها دوافع أخرى تحدد تقاليد الفروسية العربية بكل مقوماتها.
3. المرحلة الأسطورية.. حيث يصبح البطل رمزا للفارس الذى لا يقهر.. وتصبح أهدافه أهدافاً موضوعية لا ذاتية.
4. المرحلة الملحمية.. وكما هى الحال فى الأعمال الملحمية.. بعد أن يصل البطل إلى

القمة.. لا يجد أمامه إلا الطريق الوحيد إلى الانحدار مرة أخرى من القمة إلى السفح.

5. مرحلة الامتداد.. حيث تنتهي حياة البطل وتنتهي إلى جواره الخيوط التى كانت تربط مجتمعه الخاص ومجتمعه العام فتتفكك كلها وتتهاوي بعد موت البطل الذى يربط بينها.. لكن موته الجسدي لا يعني موت أعماله أو قيمه أو بطولاته.. فكل هذا يظهر فى أكثر من شكل وصورة.. يظهر فى أبطال صغار.. أو معارك مماثلة ممتدة تتجسد فيها كلما كان يفعله البطل القديم.

ولا شك أن هذه المراحل إنما تترجم وتصور مجتمعاً كبيراً بكل ملامحه وانتصاراته وهزائمه.. طموحاته وعثراته.. ونجد فيها العادات والتقاليد والقيم التى تعيش فى وجدان الإنسان غير مبالية بحاجزي الزمان والمكان..

إن السيرة تقدم صورة اجتماعية كاملة.. تسمح بأن تكون مادة متطورة مع الزمن..

وهذه السمة بالذات هى التى تغري الكاتب بتقديم السير الشعبية برؤى مختلفة للكباروالصغار على السواء.. أو كما نقول بتعبير العصر، تقديم السير الشعبية فى ضوء رؤية العصر.. لأنها تتميز بالمرونة والثراء والرموز والإيحاءات والمواقف التى تمتد بدلالتها إلى الحاضر.. ومن هنا كان الجذب وكان الإغراء بتقديمها إلى قراء العصر.. وبنفس أسلوب التعامل مع ألف ليلة وليلة أو كليلة ودمنة..

ويمكن أن يتعامل كاتب الأطفال مع السيرة الشعبية فى ضوء كثير من العناصر أهمها:

1. أن السيرة الشعبية منبع خصب للخيال.
2. أنها تتميز باحتضان القيم الإنسانية والصراع بين الخير والشر وانتصار الخير.

3. أنها تقدم نماذج البطولة العربية.. تلك البطولة التى تعتمد على الشجاعة والإقدام وترفض التواكل والفشل والتقاعس عن العمل القومي المنشود.

4. أنها تقدم مواقف يمكن أن تتكرر وتوجد فى أي عصر.. باعتبار السيرة.. هى سيرة نماذج إنسانية فى جميع أحوالها وتقلباتها.

5. أنها تقدم الأصالة العربية.. تلك السمة التى ينبغي أن نجسدها ونحييها من جديد وأن تتوحد فى وجداننا بما تبقي من جمال الماضي.. وروعته.

6. أنها تقدم الدراما بما فيها من عناصر الحكي والتشويق والحكمة والمتعة جميعاً.. وكلها تدخل فى ذكاء وجدان الصغير وعقله.

7. أنها تقدم الثقافة والمعرفة بكل أفاقها وعناصرها.

8. أنها تعطي أمثلة كريمة يستعين بها الصغير فى مواجهة الصعاب والمواقف المعقدة.. بفكر مفتوح وقلب لا يتقهقر.

9. أنها تجسم الرغبة الملحة فى تحرير النفس والجماعة من أي قيود أو حصار أو ضغوط.

10. أنها تجسد حاجة المجتمع إلى البطل الشعبي فى كل العصور حيث يعطي البطـل البعد الاجتماعي والإنساني والفني لأشهر الأحداث التاريخية التى يمكن أن تحدث فى أي عصر.

أما القوالب الفنية التى يمكن أن تقدم فيها السيرة الشعبية للصغار فيمكـن أن تكون أحد القوالب الآتية:

1. تبسيط أو تيسير السيرة فى قصة متعددة الفصول أو الأجزاء.

2. تقديمها فى صورة درامية مسرحية.

3. تقديمها أو تقديم جوانب منها فى قصص قصيرة.

4. التعبير عنها شعراً.

5. تقديمها فى وسائل الأعلام المرئية والمسموعة.

وهناك ملاحظة أخيرة ينبغي أن تكون تحت عين وبصيرة الكاتب هى أن السيرة الشعبية والموروث الشعبي بصفة عامة.. يجب أن توضع تحت مشرط الاختيار والتنقية والتصفية.. بحيث نحترم فيما نقدمه عقلية الصغير وما يتناسب مع مرحلة عمره ومع مستوي إدراكه وثقافته ووجدانه.. فنسقط كل ما يطيح بقيم الصغار.. ونعمل على تغذية خيال ووجدان وعقل الصغير بكل ما يفيد وما يضيف.

رسوم الأطفال ترف أم ضرورة؟

فى مجال ثقافة الطفل وفنونـه .. أفضل أن أجيب عن سؤال مهـم هو: ماذا يريد أطفالنا .. لا .. ماذا نريد نحن لأطفالنا؟

وطبيعي أن تتضمـن الإجابة عن هذا السـؤال التعرف على احتياجـات الطفل السيكولوجية .. واحترام هذه الاحتياجات .. ومحاولة إشباعها بكل ألوان الإشباع ..

ومن بين هذه الألـوان الإشباعيـة: الفنون .. رسما وموسيقى وكتابة ولعبا .. ثم مسرحا وسينما.

ومن هنا يمكن أن نبدأ بسؤال عكسي: ماذا يرسم الطفل .. ولماذا؟

وإذا استطعنا أن نجيب عن هذا السؤال .. وطلنا إلى جوهر القضية. جربوا معى أن يجلس أحدكم إلى مكتبه فى بيته ويمسك قلما .. ثم يدع طفله يدخل عليه .. إن الطفل سوف تثور فى نفسه غريزة المحاكـاة .. فيطلب قلما وورقا لكى "يكتب" هو الآخر .. وتكون كتابته فى النهاية شخبطة تلقائية.

إن الأطفال منذ قديم الأزل يخططـون فوق السطوح الترابية والرملية ويشخبطون على الورق والألــواح .. حتى إنهم يسعـدون بالتخطيط على أجسادهم بالألوان المختلفة .. ويشكلون من الطين تشكيلات ودمى يتحدثون إيها ويتحاورون ويلعبون معها.

وقد يحدث أن ينهر الكبار صغـارهم عن الشخبطة .. ولا يتيحون لهم الفرصة لكى يعبروا عن أنفسهم ويخرجوا طاقاتهم الفنية المختزنة .. أو نراهم يعلمـون الأطفال

الرسم بأسلوب آلى جاف يتنافى مع احتياجات الطفل وذاتيته وطبيعته فيصاب الطفل بالإحباط والعدوانية.

ويؤكد علماء النفس أن السلوك فى معظمه مدفوع إلى إشباع حاجات بعينها .. سواء أكان الإنسان واعيا لذلك أم غير واع.

ولابد أن الدافع الرئيسى لنشاط الطفل الفنى في مراحله المبكرة هو مجرد المتعة واللذة وإخراج الطاقة والتعبير عن النفس. ولا شك أن الشخبطات الأولى للطفل تشبع حاجاته الأولية ةتعتبر النواة الأولى لإحساس الطفل بالجمال فيما بعد.

إن الفنون البدائية التى وجدت على جدران الكهوف تؤكد سلوكيات الإنسان البدائى

ومن ثم فإن تلك الفنون حينما يمارسها الطفل فإنما تعبر أيضا عن سلوكياته المنقوصة..أى إنها فنون قد تكون موضع سخرية الكبار وتهكمهم..لكنها في الوقت

نفسه موضع زهو وفخر من الطفل الذى قام بهذه الرسوم أو على حد قول أحد علماء النفس: أعظم ما يبدعه الطفل هو أخطاؤه. وقد أخطأ الكبار حينما حكموا على رسوم الأطفال بمقاييسهم الفنية، ومدى محاكاتها لما هو كائن في الطبيعة، وتناسوا أن من خصائص رسوم الأطفال: التسطيح والخلط بين المسطحات والمجسمات في حيز واحد، والمبالغة والحذف والإهمال، والخطأ في التلوين، والنسب والخطوط وغير ذلك.

وتتوقف الفروق الفنية في رسوم الأطفال على عدة عوامل منها:

- الموهبة الفنية.
- والذكاء.
- والتخيل.

- والثقافة الخاصة.
- والبيئة التى يعيش فيها الطفل.
- ومعاملة الوالدين.
- والمدرس والأصدقاء.

ولنا تجربة عملية من خلال ورش العمل التى نقيمها في فرع مكتبة مصر بالزيتون حيث تتضح هذه الفروق الفنية في التعبير عن الموضوع الواحد، وقد كان لبعض الأطفال رؤاهم الخاصة التى أدهشتنا في التعبير.

وترتبط الرسوم باللعب في السن المبكرة ويجد الطفل نفسه مدفوعا إلى التسلية والمتعة، وإثبات ذاته، خاصة إذا كان أمامه مجال للمنافسة. وللون إغراء عند الأطفال، فهو يثير انتباههم في سن مبكرة، لكن العلماء يؤكدون أن اهتمام الطفل بالألوان وقدرته على التمييز بينها يختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى.

فعند الأطفال الرضع نجد أهمية التنبيه إلى اللمعان والبريق الذى يميز بعض الألوان ومن سن ستة أشهر إلى أربعة عشر شهرا يميل الأطفال إلى الوصول إلى جسم رمادى. أما طفل السنة الثالثة فهو يعطى أهمية أكثر للشكل المتفق فى اللون مع شكل آخر، وحينما يصعد الطفل فى مراحله العمرية يعطى أهمية للشكل أكثر من اللون، وخلاصة القول هنا: إن الطفل فنان بطبيعته يمتلك القدرة الذاتية الخلاقة للتعبير عما حوله من مظاهر عالمه المحسوس فى تلقائية حرة، ويستخدم الألوان للتعبير بها أيضا عن حبه وكراهيته وخوفه وسعادته، وقوته وضعفه وقلقه واطمئنانه، أى أنه يعبر عن انفعالاته الخاصة التى تعكس أوامر الوالدين وعقابهما،

وتوجيهـات المدرسين والخـوف من زحـام الشوارع، وحبه للجمال المفتقد فى الطبيعة.

إن فرصة تعليـم القـراءة تبدأ فى الصغر كما نعلم، وتبدأ بالإشارة إلى الصور ومحاولة فهمها، ومن ثم فإن الصـور فى المرحلـة الباكرة ينبغى أن تكون صورا متحركة حتى يستوعبها الطفل وتشبع له غريزتـه فى اللعب والحركـة والجرى والقفز. إنه يقرأ الصورة لأنه لا يعرف الحـروف، لكنه يستطيـع أن يحـول هذه الصورة إلى موقف أو قصة قصيرة مفهومة، فإذا رأى قطا يجرى وراء فأر، أدرك لماذا يجرى، ولماذا يطارده.

والصفحة البيضاء بلا رسـوم لا تعطى شيئا غير الفـراغ، ومن ذلك فإن الصورة تترجم للطفل عالمه الحقيقى المحسوس الذى يعيشه، وينمى خياله وإدراكه، ويجعله يحاكى هذه الرسوم بنفسه. إن العمل الأدبى الموجه للطفل بلا رسوم ناقص لا يكتمل بغير الصورة المعبرة عن هذا العمل، وهى ليست إضافة يمكـن التخلى عنها لكنها ضرورة لأنها تثقف الطفل وتنمى خيـاله وإدراكـه، وتجعله يحس الجمال ويدربه على التلقى الجمالى والاستمتاع به.

وكما ذكرنا فإن التعرف على احتياجات الطفل الفنية، ومحاولة إشباعهـا فى الكتب الموجهة إليه، هى إشبـاع لميول الأطفـال ورغباتهم وتنميـة لعقولهم وتعميق لإحساسهم بالجمال. إن الصورة الملونة المشرقة تمثل منطقة جذب نفسى ووجدانى للطفل للدخول إلى عالم الكتاب، وغلاف الكتاب يقود الطفل إلى داخله أو ينفره منه.

واستخدام الفنان وفهمه لاحتياجات الطفل الفنية- فى سنوات عمره المختلفة يمثل المدخل الحقيقى لإقناع الصغير بما يقدمه له.

ملاحظة أخيرة..تتعلق بعلاقة الرسوم بالمرحلة العمرية المختلفة، حيث تمثل الرسوم فى المراحل الأولى مساحة أكبر من الكلمات وكلما صعدنا فى مراحل القراءة، توزعت أو تقلصت مساحة الصورة وزادت مساحة الكلمات وهنا نترك للقارئ الصغير حرية التخيل، والمتعة فيما يقرؤه.

ثم ماذا!

ليس هذا تساؤلاً.. لكنه في تصوري دعم لدعوة الزحف الجماعي والشعراء، أتمنى لو يستمرون في الاستجابة له، لكي يظل وجه الحضارة العربية مشرقًا في لغة عربية سليمة.. وفي طفل سوف يحكم العالم لا محالة.

فقد قيل إن يوليوس قيصر قال لولده وهو يداعبه: إنني أحكم العالم.. وأمك تحكمني وأنت تحكم أمك..

إذن فأنت تحكم العالم.!

إن هذا الحاكم الصغير . العنيد . يتطلب منا الاهتمام به وترويض عناده عن طريق الشعر والخيال.. فنجمع في شخصيته بين التثقيف والإمتاع..وغرس الحس اللغوي السليم وحثه على تقبّل الحياة.. ودفعهإلى الاجتهاد والعمل والإنتاج.. وتعرّفه على تاريخه وحاضره وتشجيعه على صنع مستقبله اعتمادًا على رؤيته الخاصة.

وقد رأينا منذ بدأنا رحلتنا.. كيف نظر القدماء إلى الطفل على أنه رجلٌ . صغير السن . ومن غمسوه في بحر المعرفة والمتعة معًا.. في قسوة أحيانًا.. وفي حنان أحيانًا أخرى.. ولهذا نشأت أجيال العباقرة ومدوا العالم بما يستمتع به من التقدم والازدهار.

ثم رأينا كيف نظر المحدثون إلى الطفل.. على أنه كائن مدلَّل وهو في تصورهم لا

يتحمل أكبر من طاقته مهما كان هذا القدر الذي يتحمله.. وساد هذا المفهـــوم.. فخشيناعلى أطفالنا.. واستمر هذا الخـوف حتى انقلب في نفوسنا عجزًا وبعدًا عن حقيقة شخصية الطفل..

ثم ها هم شعراء اليوم . لو أفاقوا وقدّروا الموقف . يستطيعون أن يعدِلوا الموازين، ويشقوا الطريق الصخرية إلى وجدان وعقل الطفـل.بما يملكـون من قدرات عصرية .. وفهم وذكاء وقيم فنية تعينهم على تحمل هذه المسئولية.

وإذا كانت القصة قد سبقت الشعر في هذا المجـال.. فما أحرانا اليـوم أن نعـقد مصالحة مع الطفل ونقدم له تراثه . شعرًا . وواقعه أيضًا . شعرًا.. فيقترب وجدانه من وجدان أجداده.. ونعيده إلى صواب المعرفة والحب أيضًا.. حب الشعر ولغتــه وحب تاريخه وأمجاده.

* * *

وإذا رأى القارئ . أو الناقد . أن هذه المحاولــة قد أصابها بعض القصـور.. فإني أعتقد أنها قد وضعت..يدنا على بعض الحقائق التي قد يختلــف عليها الكثيـرون لكن..يثبتها الواقع والتاريخ.. ومن هذه الحقائق على سبيل المثال:

*أن الطفل في حضارة مصر القديمة كان يُنظر إليـه على أنه عضـو عامل في المجتمع.. أي أنه له حقوقه من العلم والتأديب والتهذيب.. وعليه واجب المشاركـة ولهذا لم يعدْ لنا . بعد . أن نعجب حينما نجد حكامًا وفلاسفة ومفكرين صغـارًا لم

يبلغوا سن الرشد لكنهم ينطقون بما ينطق عنه الكبار.

*أن العرب كذلك أمة قدَّرت أطفالها . منذ فطامهم . وأن اللغة التي كانوا يتداولونها في الحديث اليومي هى نفسها اللغة التي يروُون بها أدبهم..ولهذا دخل الطفل مجال الشعر والأدب والمجتمع.. مشاركًا منذ نعومة أظفاره . دون أن يشعر بصعوبـة أو عنت . وهذه ميزة الحضـارة العربيـة.. حتى أن بعض الأطفال . كذلك . نطقوا بالشعر والحكمة وهم صغار.. وحكموا وأقاموا العدل في سن الصبا.

* أن ما تواضع عليه . النقاد وأسموه (شعرَ الحيوان) لم يكن مستحدثًا.. لكنـه وجد منذ قرون طويلة لدى مصر القديمة.. ولدى العرب قبل أن نعرف كليلـة ودمنة وإيسوب وقبل أن يعرف العالم الغربي . بالتالي . هذا الفن.. ثم ها هو يعـود مرة أخرى إلى مصر ممثلاً فى أشعار محمد عثمـان جلال.. وأحمد شوقي ومن نحا نحوهما.

* أن الشعر التعليمي لا يصيبه (التقليد أو القدم) لأنه فن خالد مثل الأهـرام.. كتبه المصري القديم وحضارات العالم الأخرى والعرب كذلك.. وهو يمثـل في أدبنـا المعاصر ركنًا أساسيًّا كذلك وحقيقة واقعة مهما اختلفنا عليها.

* أن من العدل أن يُعطي كل ذي حق حقـه.. في أي فترة من فترات الزمان ولهذا فمن الخطأ أن ينسب مثلاً إلى أحمد شوقي ريادته لشعرالأطفال أو إلى الطهطاوي وحده . إدخال أدب الأطفال المدارس.. أو أن الأدب المكتوب لزطفال لم يوجد إلا

في العشرينات من هذا القرن..إلى نهاية هذه الأحكام الخاطئة المطلقة التي تزيف كثيرًا من حقائق التاريخ..وحسبنا في هذه الدراسة المتواضعة محاولة تعديل بعض هذه الموازين المقلوبة.

* وأولاً وأخيرًا وكل يوم.. لا غناء عن الشعر.. ولا غناء للشعـراء عن الكتابــة للأطفال ولهذا فأنا تتملكني حماسة في دعوة أصدقائي الشعراء أن نحتكم إلى كل هذه الحقائق ونتضافر في عمل (ديوان الطفل العربي) على أن يكون ذا شقين:

1 . شق نجمع فيه نماذج من التراث . ماضيــه وحاضره . مع شروح بسيطة على أن يختار بعناية ودقة.. وبه تعريف للشاعر صاحب القصيـدة ومناسبــة القصيدة إن وجدت..

2 . وشق حديث مؤلف خصّيصًا.. تتســع فيه الرؤية.. والرقعة الفنية على مستوى القصيدة أو الألوان الأخرى للإبداع..

وأعتقد . صادقًا . أن تجربتي في الكتابة للأطفال شعرا تؤكد ذكاء هذا المخلوق الذي في داخله يرفض التدليل.. ويرفض تلك النماذج النظمّية الجافـة التي يتلقـاها في قاعات الدرس.. وينظم معظمهَا (زبائنُ التأليف) في وزارة التربية والتعليـم.. وهذه قضية آن الأوان لحسمها.. والتخلص من شوائبها.. فمصر لديهـا شعـراؤها الذين

يمكنهم أن يعطوا بلا حـدود.. من أجل مستقبلها.. وليس كـل عامـل في مجـال التربية شاعرًا بالقطع.. وكفانـا صمتًا على مثل هذه المسلمـــات التي أعتقد أنها تـدهورت بعقول صغارنا كثيرًا..

ولو كلف أحد هؤلاء الناظمين نفسه بالنظروالتأمل في دواوين الشعراء المعاصرين . منذ شوقي حتى الآن . لعثر على النماذج التي ترفـع مستوى ما يقدمٍ.. والتي تضيف إلى عقلية الصغير.. وتجعله يقترب حسًّا ووجدانًا من فن العربيـة الأول (الشعر)!

إنها دعوة أرجو أن تجد صداها لدى كل من يشعر بالمسئولية الأدبية والاجتماعية أمام الأجيال القادمة التي سوف تحكم العالم . لا محالة.

وبعد

فإذا كانت هذه الرحلة . على طولها . قد تصيبها بين الحين والآخر بعض المعوقات أو أنها تشكو الخور والعنت من مواصلة اللهاث.. فإنني لا أمـلك إلا أن ألتمس العذر لكل ما وقعت فيه من حفر أو عثرات.. فهى مجرد محاولة..ووضع علامات وإشارات ودعوة حميمة من القلب والعقل في هذا الموضوع..

والمحاولة بلا شك تحتمل كثيرًا من الخطأ.. وقليلاً من الصواب!!

والله الموفق،

أهم المراجع

- في موكب الشمس . د. أحمد بدوي، لجنة التأليف .1950.
- التربية والتعليم في مصر القديمة . د. عبد العزيز صالح، الدار القومية 1966.
- في الأدب المصري القديم . أحمد عبد الحمدي يوسف، دار الكرنك 1962.
- الحكم والأمثال عند المصريين القدماء . محرم كمال، المكتبة الثقافية 1962.
- الموسيقي والغناء عند قدماء المصريين . فكري بطرس، دار المعارف 1983.
- أساطير العالم القديم: صمويل نوح كريم ، ت: أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة العامة للكتاب 1974.
- من ألواح سومر صمويل نوح كريمر ت: طه باقر، مؤسسة فرانكلين.
- إيسوب . أ. د. ونيتل ت: د. مختار الوكيل (الألف كتاب) 1956 .
- مختارات من الشعر الفارسي ت: د. محمد غنيمي هلال،الدار القومية 1965.
- الأغاني . للأصفهاني، دار الشعب.
- الشعر الشعبي العربي . د. حسين نصار، م. ثقافية 1962.

- التربية في الإسلام . د. أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف 1968.
- لعب العرب . أحمد تيمور باشا، نهضة مصر 1977.
- الفتوة عند العرب . عمر الدسوقي، نهضة مصر .
- كليلة ودمنة . ابن المقفع، دار الشروق بيروت 1973.
- الشوقيات حـ 4 . أحمد شوقي، المكتبة التجارية 1970.
- الحكاية على لسان الحيوان عند شوقي . د. سعد ظلام، دار التراث العربي 1982.
- العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ . محمد عثمان جلال . تحقيق عامر بـ حيري، هيئة الكتاب 1978.
- شعري . محمود أبو الوفا، مطبعة الأوقاف 1973.
- أدب الأطفال . هادي نعمان الهيتي، وزارة الإعلام العراقية 1977.
- دواوين الأطفال . محمد الهراوي،لجنة التأليف والترجمة . دار الكتب المصرية . 1922 . 1929.
- الطفل يستعد للقراءة . د. محمد محمود رضوان، دار المعارف 1973.
- مقدمة ابن خلدون، مطبعة التقدم 1329هـ.
- رسائل الآباء إلى الأبناء . إيفان جونس ترجمة لطفي الخوري، النهضة بغداد 1962.
- تمهيد لفن الموسيقى . ماكس بنشار ترجمة محمد رشاد،نهضة مصر 1973

- معجم شعراء الطفولة . أحمد فضل شبلول . دار المعراج الدولية 1998.
- أدب الأطفال في البدء كانت الأنشودة . د. أنس داود، دار المعارف 1993.
- رواد الطفل العربي . د. أحمد زلط . دار الأرقم 1993.
- دواوين الشعراء الذين وردت أسماؤهم في الدراسة.

قائمة المحتويات

الموضوع

- **مدخل عام إلى أدب الأطفال**
- **أدبان أم أدب واحد**
- **الطباعة وأدب الصغار**
- **أهداف أدب الأطفال**
- **الطفل والأدب**
- **سلوك الأطفال في سن ما قبل القراءة**
- **مراحل ما بعد القراءة**
- **الطفل والشعر**
- **الطفل – الشعر – الموسيقى**
- **شعر الأطفال في مصر القديمة**
- **التربية والتعليم في مصر القديمة**
- **الأدب في المرحلة الجماعية**
- **الشعر التعليمى**
- **الشعر الخالص**
- **شعر الأطفال في التراث العربى**

أ- شعر ترقيص الأطفال.

ب- أغانى الألعاب عند العرب.

ت- الحداء.

ث- وصايا الآباء للأبناء.

- **الأطفال والشعر المعاصر:**

- **أدب الأطفال المعاصر.**
- **شعر الحيوان.**
- **محمد عثمان جلال.**
- **أحمد شوقى.**
- **عبدالله فريج.**
- **محمد الهراوى.**
- **كامل كيلانى.**
- **إبراهيم العرب.**

- **محاولات حديثة جدا من شعر الأطفال:**

- **محاولات سورية.**
- **محاولات عراقية.**
- **التجربة المصرية.**
- **تجربتى في شعر الأطفال .. أحمد سويلم**

- **تبسيط التراث شعرا للأطفال (الأمثال الشعبية نموذجا)**
- **السير الشعبية وأدب الأطفال**

  السيرة الشعبية في عالم الصغار.

  مثال تطبيقة سيرة عنترة بن شداد

- **رسوم الأطفال ترف أم ضرورة؟**
- **ثم ماذا؟؟؟**
- **المراجع**